اعلم
برنامج العلم النافع

المشير

شرح مقدمة الرسالة

للإمام أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني رحمه الله
(٣١٠ ـ ٣٨٦هـ)

تأليف

أ. د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم سابقًا

دار ابن الجوزي

شرح مقدمة الرسالة
تأليف
أ. د. أحمد بن عبد الرحمن القاضي
دار ابن الجوزي

شرح
مقدمة الرسالة

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ
فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاضي، أحمد عبد الرحمن
شرح مقدمة الرسالة / أحمد عبد الرحمن القاضي
ـط١.. ـ الدمام، ١٤٤٣ هـ.
١٧٦ص؛١٧×٢٤ سم
ردمك: ٩ ـ ٦٢ ـ ٨٣٣٨ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ العقيدة الإسلامية أ. العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٤٣/٦٩٥١هـ

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٦٩٥١هـ
ردمك: ٩ ـ ٦٢ ـ ٨٣٣٨ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ

الباركود الدولي: 9786038298244



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية:
الدمام-حي الريان-شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦-٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريد: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جـدة - ت: ٠١٢٦٠١٠٠٦٣
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت- ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة- تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
ibnaljawzi.com

اعلم
برنامج العلم النافع

المشير
مركز المشير
للاستشارات التعليمية و التربوية

شرح
مقدمة الرسالة

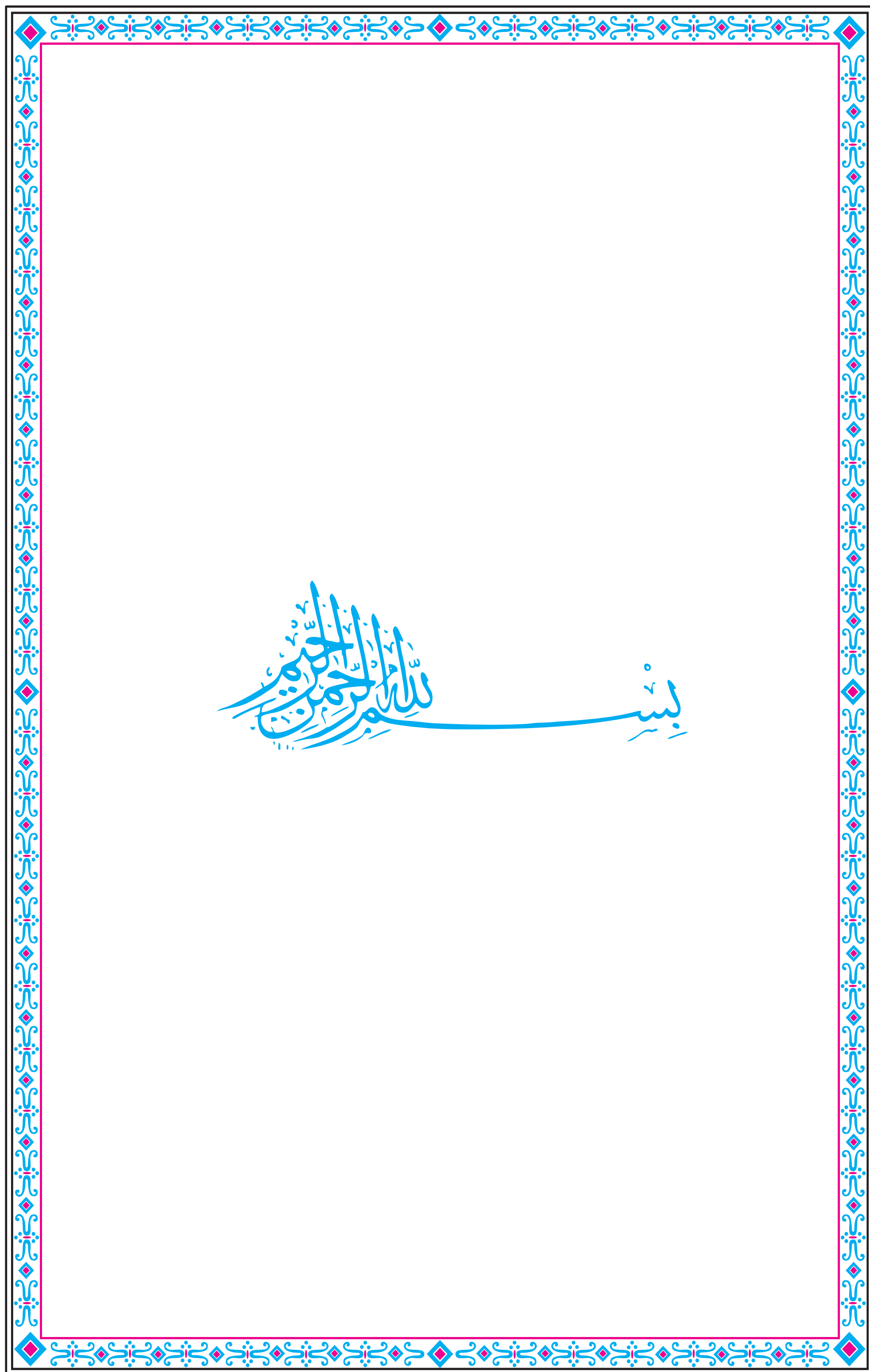
لِلإمَامِ أبي مُحَمَّدٍ عَبدُ اللهِ بنِ أبي زَيْدٍ القَيرَوَانيّ رَحِمَهُ اللهُ

(٣١٠ - ٣٨٦ هـ)

تأليف

أ. د. أحمد بن عبد الرَّحمن بن عُثمان القاضي
أستاذ العقيدة والمذاهب المُعاصرة بجامعة القصيم سابقًا

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله تعالى بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، فبلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين. فصلوات ربي وسلامه عليه، وعلى من اهتدى بهديه، واستن بسُنَّته إلى يوم الدين. **أما بعد:**

فإن الله تعالى بعث نبيّه محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ففتح به قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقد كان الناس؛ عربهم، وعجمهم، أميهم، وكتابيهم، في جهالة جهلاء، وفتنة عمياء، حتى أتتهم البينة: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ۝٣﴾ [البينة: ١ ـ ٣].

فما زال نور الإسلام يمتد، وأمره يشتد، حتى بلغ الآفاق، ودخل الناس في دين الله أفواجًا. وقيَّض الله لحفظه ونشره، الصفوةَ من خلقه؛ يحمله من كل خلَف عدوله؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين.

وكان من هؤلاء الأماجد المتقدمين، إمام أهل السُّنَّة في المغرب: ابن أبي زيد القيرواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي دبَّج رسالته في الفقه المالكي، بمقدمة عقدية سلفية رائقة، جرى فيها على سنن السلف الأولين، من أئمة أهل السُّنَّة والجماعة، وحذا حذوهم، ونسج على منوالهم.

وقد منَّ الله عليَّ بشرح هذه المقدمة في مناسبات متعددة، ودروس متتالية. ثم جرى تفريغ المحتوى الصوتي، ومراجعته، وتحريره، وتوثيقه، بما يقتضيه الإخراج العلمي، والنشر العام.

واللهَ أسأل أن ينفع بهذا الشرح، كما نفع بالأصل، وأن يحيينا على الإسلام والسُّنَّة، وأن يتوفانا عليهما، وأن يجعلنا هداة مهتدين. والحمد لله ربِّ العالمين.

كتبه

أ. د. أحمد بن عبد الرحمٰن بن عثمان القاضي

عنيزة. في ٢٠/رمضان/١٤٤٢هـ



ترجمة المصنف

۞ اسمه ونسبته:

اسمه: عبد الله، وكنيته: أبو محمد، واسم أبيه: عبد الرحمٰن، وكنيته: أبو زيد. فهو: عبد الله بن عبد الرحمٰن، ونِسْبَتُهُ: «النَّفْزِيُّ» ويقال: «النَّفْزَاوِيُّ»، نسبة إلى قبيلة كبيرة من قبائل البربر، وقيل: نسبة إلى بلدة يقال لها: «نَفْزَةٌ» من بلاد الأندلس، والقول الأول أولى. ونسبته إلى حاضرة القيروان، من بلاد تونس، أشهر. وشهرته عند الناس: «ابن أبي زيد القيرواني».

۞ مولده:

ولد سنة ثلاثمائة وعشرة (٣١٠) من الهجرة النبوية الشريفة.

۞ شيوخه:

أخذ عن جمع من علماء زمانه، من المشارقة والمغاربة، **منهم**:

- أبو الفضل، عباس بن عيسى الممسي، القيرواني (ت: ٣٣٣هـ)
- أبو العباس، عبد الله بن أحمد الأبياني، التونسي (ت: ٣٥٢هـ)
- أبو ميمونة، دارس بن إسماعيل الجروي، الفاسي (ت: ٣٥٧هـ)
- أبو بكر، محمد بن عبد الله الأبهري، البغدادي (ت: ٣٩٥هـ)

۞ تلاميذه:

سمع منه خلق كثير، **منهم**:

- خلف بن أبي القاسم الأزدي، البرادعي، صاحب «تهذيب المدونة».

- أبو بكر أحمد بن عبد الرحمٰن الخولاني (ت: ٤٣٢هـ)
- أبو محمد، مكي بن طالب القيسي القيرواني (ت: ٣٥٥هـ)

منزلته العلمية:

كان رَحِمَهُ اللهُ على طريقة إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ في الأصول والفروع. ومنزلته في طبقات المالكية: في أواخر المتقدمين وأوائل المتأخرين. كان واسع العلم، حتى لُقِّب بمالك الصغير.

قال عنه القاضي عياض: (وكان أبو محمد إمام المالكية في وقته، وقدوتهم، وجامع مذهب مالك، وشارح أقواله. وكان واسع العلم، كثير الحفظ والرواية، وكتبه تشهد له بذلك. فصيح القلم، ذا بيان ومعرفة بما يقوله، ذابًّا عن مذهب مالك، قائمًا بالحجة عليه، بصيرًا بالرد على أهل الأهواء. يقول الشعر، ويجيده، ويجمع إلى ذلك صلاحًا تامًّا، وورعًا وعفة. وحاز رئاسة الدين والدنيا. وإليه كانت الرحلة من الأقطار، ونجب أصحابه، وكثر الآخذون عنه. وهو الذي لخص المذهب، وضم كسره، وذبّ عنه، وملأت البلاد تواليفه. عارض كثير من الناس أكثرها، فلم يبلغوا مداه، مع فضل السبق، وصعوبة المبتدأ. وعرف قدره الأكابر.

قال الشيرازي: وكان يعرف بمالك الصغير. وذكره أبو الحسن القابسي، فقال: إمام موثوق به في درايته، وروايته. وقال أبو الحسن علي بن عبد الله القطان: ما قلدت أبا محمد ابن أبي زيد، حتى رأيت السبائي يقلده. وذكره أبو بكر بن الطيب في كتابه، فعظَّم قدره، وشيّخه. وكذلك هو وغيره من أهل المشرق. واستجازه ابن مجاهد البغدادي، وغيره من أصحابه البغداديين. قال أبو عبد الله الميورقي: اجتمع فيه العلم، والورع، والفضل، والعقل. شهرته تغني عن ذكره. قال الداودي: وكان سريع الانقياد الى الحق)[(١)].

وقال الذهبي: (كَانَ أَحَدَ مَنْ بَرَّزَ فِي العِلْمِ وَالعملِ. . . وَكَانَ مَعَ عظمتِهِ

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٦/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

فِي العِلْمِ وَالعملِ ذَا برٍّ وَإِيثَارٍ وَإِنفَاقٍ عَلَى الطّلبَةِ وَإِحسَان. . . قُلْتُ: وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ فِي الأُصُوْلِ، لَا يَدْرِي الكَلَامَ، وَلَا يتَأَوَّلُ)[(١)].

وقد عاصر نُشُوءَ دولة العُبَيْدِيِّيْنَ الروافض في بلاد المغرب ومصر، فكان حربًا عليهم. والدولة العبيدية دولة باطنية خبيثة، تملكت بلاد المغرب ومصر وأطراف الشام وفلسطين. كما كان حربًا على الطُّرُقِيِّيْن وأهل البدع، وكان قوامًا بدين الله عَزَّ وَجَلَّ، ومشتغلًا بأصناف العلوم الشرعية.

۞ مؤلفاته:

أَلَّف رَحِمَهُ اللَّهُ نحوًا من أربعين مصنَّفًا، **منها**:

- «النوادر والزيادات»: في خمسة عشر مجلدًا.

- «مختصر المدونة»، يحتوي على خمسين ألف مسألة. قال الذهبي: (وعلى هذين الكتابين المعول في الفتيا بالمغرب)[(٢)].

- «تهذيب العَتَبِيَّة»، وكتاب «الاقتداء بمذهب مالك»، وكتاب «الثقة بالله والتوكل على الله»، وكتاب «المعرفة والتفسير»، وكتاب «إعجاز القرآن»، وكتاب «النهي عن الجدال»، ورسالة في «الرد على القدرية»، و**(الرسالة)** المشهورة. وقيل: إنه أَلَّفها وله سبع عشرة سنة، نحو سنة ثلاثمائة وسبعة وعشرين.

۞ وفاته:

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ثلاثمائة وست وثمانين. فقد عاش ستًّا وسبعين سنة عامرة بالعلم والجهاد، والنفع، والبر، والدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

۞ أهمية الرسالة:

توصف «الرسالة» عند المالكية بـ (باكورة السعد وزبدة المذهب). وهي

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٠ ـ ١٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/ ١١).

أول مختصر في المذهب المالكي، وقد ألَّفها استجابة لطلب معلم قرآن، ومؤدب صبيان، يقال له: مُحْرَز بن خَلَفِ البَكْرِيّ، كان يسكن بلاد تونس.

تتكوَّن «الرسالة» من مقدمة في بيان ما يُنَشَّأُ عليه صبيان المسلمين، وما ينبغي أن يَسْبِقَ إلى قلوبهم، وما تنطق به ألسنتهم. تتلوها جملة صالحة من مجمل اعتقاد السلف. وهي عقيدة سلفية معتبرة، أثنى عليها الأئمة على مر القرون. تتلوها أبواب في الفقه والآداب والعبادات.

وقد اعتنى أئمة المالكية بهذه الرسالة عناية فائقة، قال شارحها زرَّوق (المتوفى سنة ٨٩٩هـ): (ذكر أنها منذ وجدت حتى الآن يخرج لها في كل سنة شرح وتبيان)[(١)].

واشتهر من شروحها ثلاثون شرحًا. وكان شرّاحها الأوائل أقرب إلى الطريقة السلفية؛ كشرح أبي بكر، محمد بن مَوْهَب المقْبُرِيّ (ت: ٤٠٦هـ)، وشرح تلميذه القاضي عبد الوهاب بن نصر المالكي البغدادي (ت: ٤٢٢هـ). ثم شرحت بعد ذلك على طريقة المتكلمين؛ كشرح ابن ناجي (ت: ٨٣٨هـ)، والبرنسي المعروف بزرُّوق (ت: ٨٩٩هـ)، والمَنُوفِيّ (ت: ٩٣٩هـ)، والتتائي (ت: ٩٤٢هـ)، وابن غنيم النفراوي (ت: ١١٢٥هـ)، والآبي. وغيرهم، فشابوها ـ للأسف ـ بالمقالات المنحرفة، والمباحث الكلامية التي عكَّرت صفو الرسالة[(٢)]. كما نظمها أحمد بن مُشَرَّف الأَحْسَائِي المالكي (ت: ١٢٩٨هـ) نظمًا رائقًا.

---

(١) شرح الرسالة (١/ ٦).

(٢) وقد اعتنى د. عمار بن سعيد المري بدراسة هذه الشروحات ونقدها في رسالة علمية، أشرفت عليها، بعنوان: (التقريرات الكلامية لشراح المقدمة العقدية لرسالة ابن أبي زيد القيرواني: دراسة نقدية على ضوء عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة)، وخلص إلى نتيجة هامة، وهي: (أن هذه المقدمة المباركة تعرضت لكثير من التحريفات التي خالف بها الشراح المتكلمون مراد مؤلفها، الموافق لما عليه السلف الصالح، رحمهم الله، فقرروها على طريقة المتكلمين).
ط: مكتبة أهل الأثر (الكويت)، وشركة وعي الدولية (القاهرة)، ١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م.
ص: (٧).

متن الرسالة

قال أبو محمد، عبد الله بن أبي زيد القيرواني ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ:

(الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوَّره في الأرحام بحكمته، وأبرزه إلى رفقه وما يسره له من رزقه، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، ونبهه بآثار صنعته، وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرةِ من خلقه؛ فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله، ويسر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى، فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين، وتعلموا ما علَّمهم، ووقفوا عند ما حدَّ لهم، واستغنوا بما أحل لهم عما حرم عليهم.

أما بعد: أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة؛ مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن؛ مع مؤكدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه، على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته، مع ما سهَّل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين، وبيان المتفقهين، لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان، كما تعلّمهم

حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه، ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته، فأجبتك إلى ذلك، لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علَّم دين الله، أو دعا إليه).

(واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير، ما لم يسبق الشر إليه. وأولى ما عني به الناصحون، ورغب في أجره الراغبون، إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين؛ ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة، وحدود الشريعة؛ ليراضوا عليها. وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم، فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وأن تعليم شيء في الصغر كالنقش في الحجر.

وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون ـ إن شاء الله ـ بحفظه، ويشرفون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به. وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر، ويفرق بينهم في المضاجع. فكذلك، ينبغي أن يعلَّموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم؛ ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم.

وقد فرض الله سبحانه على القلب عملًا من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظاهرة عملًا من الطاعات. وسأفصل لك ما شرطتُ لك ذكره بابًا بابًا؛ ليقرب من فهم متعلِّميه إن شاء الله، وإياه نستخير، وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلَّى الله على سيدنا محمد نبيّه وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا).

باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات

(من ذلك الإيمانُ بالقلب، والنُّطقُ باللِّسان، أنَّ الله إلٰهٌ واحدٌ لا إلٰه غيرُه، ولا شبيهَ له، ولا نَظيرَ له، ولا وَلَدَ له، ولا وَالِدَ له، ولا صاحبة له، ولا شريكَ له.

ليس لأَوَّلِيَّتِهِ ابتداءٌ، ولا لآخِرِيَّتِه انقضَاءٌ، لا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الواصفون، ولَا يُحيطُ بأمرِهِ المُتَفَكِّرونَ، يَعتَبِرُ المتفكِّرونَ بآياته، ولا يَتَفكَّرونَ في مَائيَّةِ ذاتِه، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]، العالِمُ الخبيرُ، المُدَبِّرُ القَدِيرُ، السَّمِيعُ البصيرُ، العَلِيُّ الكَبيرُ.

وَأنَّه فوقَ عَرشه المجيد بذاته، وهو في كلِّ مَكان بعِلمه. خَلَقَ الإنسانَ، ويَعلمُ ما تُوَسْوِسُ به نفسُه، وهو أَقربُ إليهِ مِن حَبْلِ الوَرِيدِ، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

على العَرشِ اسْتَوى، وعَلى المُلْكِ احْتَوى، وله الأسماء الحُسنى والصِّفاتُ العُلَى، لَم يَزَل بِجَميعِ صفاتِه وأسمائِه، تَعالى أن تكونَ صفاتُه مَخلوقةً، وأسماؤُه مُحْدَثَةً.

كلَّم موسى بكلامِه الَّذي هو صفةُ ذاتِه، لا خَلْقٌ مِن خَلقِه، وَتَجَلَّى للجَبَل فصار دَكًّا مِن جلالِه، وأنَّ القرآنَ كلامُ الله، ليس بمخلُوقٍ فيَبِيدَ، ولا صفة لمخلوقٍ فيَنْفَدَ.

والإيمانُ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه، حُلْوِهِ وَمُرِّهِ، وكلُّ ذلك قَد قَدَّرَهُ اللهُ رَبُّنا، ومقاديرُ الأمورِ بيدِه، ومَصدَرُها عن قضائِه.

عَلِمَ كلَّ شيْءٍ قَبل كَونِه، فجَرَى على قَدَرِه، لا يَكون مِن عبادِه قَولٌ ولا عَمَلٌ إلَّا وقدْ قَضَاهُ وسبق عِلْمُه به، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: ١٤]، يُضِلُّ مَن يشاء، فيَخْذُلُه بعدْلِه، ويَهدي مَن يَشاء، فَيُوَفِّقُه بفضلِه، فكَلٌّ مُيَسَّرٌ بتَيْسيره إلى ما سَبَقَ مِن علمه وقَدَرِه، مِن شَقِيٍّ أو سعيدٍ.

تعالَى الله أن يكونَ في مُلْكِهِ ما لا يُريد، أو يكونَ لأَحَد عنه غِنًى، أو يكون خالقٌ لشيءٍ. ألَا هو رَبُّ العباد، ورَبُّ أعمالِهم، والمُقَدِّرُ لِحَركاتِهم وآجالِهم.

الباعثُ الرُّسُل إليهم لإقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيهم. ثُمَّ خَتَمَ الرِّسالةَ والنَّذَارَةَ والنُّبُوَةَ بمحمَّد نَبيِّه ﷺ، فجَعَلَه آخرَ المرْسَلين، بَشِيرًا ونَذِيرًا، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٦]، وأنزَلَ عَليه كتابَه الحَكِيمَ، وشَرَحَ به دينَه القَويمَ، وهَدَى به الصِّرَاطَ المستَقيمَ.

وأنَّ السَّاعةَ آتيَةٌ لا رَيْبَ فيها، وأنَّ اللهَ يَبعَثُ مَن يَموتُ، كما بدأهم يعودون.

وأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضاعَفَ لعباده المؤمنين الحسَنات، وصَفَحَ لهم بالتَّوبَة عن كبائرِ السيِّئات، وغَفَرَ لهم الصَّغائِرَ باجْتناب الكبائِر، وجَعَلَ مَن لَم يَتُبْ مِنَ الكبائر صَائرًا إلى مَشيئَتِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، ومَن عاقَبَه اللهُ بنارِه أخرجه مِنها بإيمانِه، فأدخلَه به جَنَّتَه، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا

يَـرَهُۥ ﴿٧﴾﴾، ويُخرِجُ منها بشفاعَة النَّبِيِّ ﷺ مَن شَفَعَ لَه مِن أهلِ الكبائِر مِن أمَّتِه.

وأنَّ اللهَ سبحانه قد خَلَقَ الجَنَّةَ فأَعَدَّها دارَ خُلُود لأوليائِه، وأكرَمهم فيها بالنَّظر إلَى وَجْهِه الكريم، وهي الَّتِي أَهْبَطَ منها آدَمَ نبِيَّه وخلِيفَتَه إلى أَرضِه، بِما سَبَقَ فِي سابِق عِلمِه.

وخَلَق النَّارَ فأعَدَّها دَارَ خُلُود لِمَن كَفَرَ به وألْحَدَ في آياتِه وكتُبه ورُسُلِه، وجَعَلَهم مَحجُوبِين عن رُؤيَتِه.

وأنَّ اللهَ ﷻ يَجيءُ يَومَ القيامَةِ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا؛ لِعَرْضِ الأُمَمِ وَحِسَابِهَا وعقُوبَتِها وثَوابِها، وتُوضَعُ الموازِينُ لَوَزْنِ أَعْمَالِ العِبَادِ، ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأعراف: ٨]، ويُؤْتَوْنَ صَحائِفهم بأعمَالِهم، فمَن أُوتِي كتابَه بيمينه فسوف يُحاسَبُ حِسابًا يَسيرًا، ومَن أُوتِي كتابَه ورَاء ظَهْرِه فأولئِك يَصْلَوْنَ سَعيرًا.

وأنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ، يَجُوزُه العبادُ بِقَدْرِ أعمالِهم، فناجُون مُتفاوِتُون في سُرعَة النَّجاةِ عليه مِن نار جَهَنَّم، وقَوْمٌ أَوْبَقَتْهُمْ فيها أعمالُهم.

والإيمانُ بِحَوْض رسولِ الله ﷺ، تَرِدُهُ أمَّتُهُ، لَا يَظْمَأُ مَن شَرب مِنه، ويُذَادُ عنه مَنْ بَدَّلَ وغَيَّرَ.

وأنَّ الإيمانَ قَولٌ باللِّسانِ، وإخلَاصٌ بالقلب، وعَمَلٌ بالجوارِح؛ يَزيد بزيادَة الأعمالِ، ويَنقُصُ بنَقْصِها، فيكون فيها النَّقصُ وبها الزِّيادَة، ولا يَكْمُلُ قَولُ الإيمانِ إلَّا بالعمل، ولا قَولٌ وعَمَلٌ إلَّا بنِيَّة، ولا قولٌ وعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إلَّا بمُوَافَقَة السُّنَّة.

وأنَّه لا يكفرُ أَحدٌ بذَنب مِنْ أهْل القِبْلَة.

وأنَّ الشُّهداءَ أحياءٌ عند ربِّهم يُرْزَقونَ، وأرْواحُ أهْل السَّعادَةِ باقِيةٌ ناعِمةٌ إلى يوم يُبْعَثون، وأرواحُ أهلِ الشَّقاوَةِ مُعَذَّبَةٌ إلى يَوم الدِّين.

وأنَّ المؤمنِينَ يُفْتَنُونَ في قُبُورِهم ويُسْأَلُون، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وأنَّ على العباد حَفَظَةً يَكتُبون أعمالَهم، ولا يَسقُطُ شيْءٌ مِن ذلك عَن عِلمِ ربِّهم، وأنَّ مَلَكَ الموتِ يَقْبِضُ الأرواحَ بإذن ربِّه.

وأنَّ خيْرَ القرون القرنُ الَّذين رَأَوا رسولَ الله ﷺ وآمَنوا به، ثمَّ الَّذين يَلُونَهم ثمَّ الَّذين يَلونَهم.

وَأفْضَلُ الصحابة الخُلَفاءُ الرَّاشدون المَهْديُّون؛ أبو بكر ثمَّ عُمر ثمَّ عُثمان ثمَّ عليٌّ رضي الله عنهم أجمعين.

وأن لَا يُذكَرَ أَحَدٌ مِن صحابَةِ الرَّسولِ ﷺ إلَّا بأحْسَن ذِكْرٍ، والإمساك عمَّا شَجَرَ بَينهم، وأنَّهم أحقُّ النَّاس أن يُلْتَمَسَ لَهم أَحَسَن المخارج، ويُظَنَّ بهم أحْسن المذاهب.

والطَّاعَةُ لأئمَّة المسلمين مِن وُلَاة أمورِهم وعُلمائهم، واتِّباعُ السَّلَفِ الصَّالِح واقتفاءُ آثارِهم، والاستغفارُ لهم، وتَركُ المراءِ والجِدَالِ في الدِّين، وتَركُ ما أَحْدَثَهُ المُحْدِثُونَ.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ نبيِّه وعلى آله وأزواجِه وذريته، وسلَّم تَسليمًا كثيرًا).

مقدمة الرسالة

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوَّره في الأرحام بحكمته، وأبرزه إلى رفقه وما يسره له من رزقه، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، ونبهه بآثار صنعته، وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرةِ من خلقه؛ فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله، ويسر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى؛ فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين، وتعلموا ما علَّمهم، ووقفوا عند ما حدَّ لهم، واستغنوا بما أحل لهم عما حرم عليهم).

الشرح

استهل المصنف «رسالته» بهذه الخطبة الفخمة الأنيقة، المزدانة برونق العلم وبهجته وطمأنينته. وابتدأها بـ «الحمدلة»، تأسيًا ببعض بفاتحة الكتاب، وأربع سور منه، واقتداءً بالنبي ﷺ في خطبه.

قوله: (**الحمد لله**): الحمد: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بالصفات الجميلة والأفعال الحسنة، بسبب كونه منعمًا، مع المحبة والإجلال. فإن تجرد عن هذا فهو (مدح).

والحمد إذا تكرر صار ثناءً؛ لأن الثناء مأخوذ من الثُّنْيَة، وهي رد طرف الثوب على بعضه. ويدل على ذلك الحديث القدسي، في الفاتحة: «**فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ**: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ١]، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي**

عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٣]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»[1]، فسمَّى الحمد ثناءً لما تكرر. فحَمِد المؤلف ربه ﷻ بهذه الأوصاف:

ـ (ابتدأ الإنسان بنعمته): فضلًا منه وإحسانًا، لا ليستكثر به من قلة، ولا ليستعز به من ذلة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

ـ (وصوره في الأرحام بحكمته): قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران: ٦]، وأفعاله سبحانه مقرونة بحكمته.

ـ (وأبرزه إلى رفقه، وما يسره له من رزقه): قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾ [الروم: ٤٠]، فلولا رفقه ورزقه ما استقام عيشه.

ـ (وعلَّمه ما لم يكن يعلم): قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: ٣، ٤].

ـ (ونبهه بآثار صنعته): قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٠﴾ [العنكبوت: ٢٠].

ـ (وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرةِ من خلقه): قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾ [المائدة: ١٩].

ـ (فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله): الهدى والضلال محض حق الله تعالى، لا يسأل عما يفعل، ولا معقب لحكمه. قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [النحل: ٩٣]، وقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٣٩﴾ [الأنعام: ٣٩]. وسيأتي له مزيد بيان.

(١) أخرجه مسلم رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ـ (**ويسر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى**): قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ ـ ٧].

ـ (**فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين**): هذه حقيقة الإيمان: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان. وسيأتي لها مزيد بيان.



ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

❁ (أما بعد: أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة؛ مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن؛ مع مؤكدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه، على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته، مع ما سهَّل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين، وبيان المتفقهين، لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان، كما تعلّمهم حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه، ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم، عاقبته فأجبتك إلى ذلك، لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علَّم دين الله، أو دعا إليه.

واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير، ما لم يسبق الشر إليه. وأولى ما عني به الناصحون، ورغب في أجره الراغبون، إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين؛ ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة، وحدود الشريعة؛ ليراضوا عليها. وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم، فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وأن تعليم شيء في الصغر كالنقش في الحجر).

الشرح

قوله: (أما بعد): هذه الكلمة يؤتى بها للدخول في صلب الموضوع، وقد استعملها النبي ﷺ في خُطُبِه ومُكَاتَبَاتِه، ولا يصح أن يقال: يُؤْتَى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر؛ لأن هذا يقتضي تكرارها كلما انتقل من فكرة إلى أخرى. ويقال: إنها فصل الخطاب. ومعناها: مهما يكن من شيء؛ لأن كلمة أمَّا: نائبة عن اسم شرط وفعله. وقيل: إن التقدير: أما بعد تقديم ما يجب تقديمه من الحمد والثناء، والصلاة والسلام. ثم أتبعها بالدعاء لنفسه ومخاطَبه بالإعانة على **أمرين**:

١ ـ رعاية ودائعه الخَلقية: وهي ما أودعه الله في الإنسان من القوى والجوارح السبعة؛ وهي: السمع، والبصر، واللسان، واليدان، والرجلان، والبطن والفرج.

٢ ـ حفظ ودائعه المكتسبة: وهي العلوم الشرعية، المستمدة من الكتاب والسُّنَّة، بالعمل بها.

وقد صرح المصنف رحمه الله، بالباعث له على تأليف هذه الرسالة، وأنه إجابة لطلب إنسان لم يُسمِّه، لكن قد عُرِفَ أنه: أبو محفوظ، مُحْرَز بن خَلَفِ البَكْرِيّ التونسي، كان معلم قرآن، ومؤدب صبيان، فأجابه إلى طلبه.

وفي هذا ملحظ لطيف، وهو حصول البركة العظيمة بسبب يسير، فإن هذا المعلم جزاه الله عن المسلمين خير الجزاء، كان سببًا مباشرًا لانتفاع فئام من أمة محمد ﷺ ببركة سؤاله، وربما لم يَدُرْ بِخَلَدِهِ أنه سيثمر هذه البركة العظيمة، بتأليف هذه الرسالة التي انتفعت بها الأمة على مر القرون. فلا تحقرن يا طالب العلم من المعروف شيئًا، ولا تقل: هذا أمر تافه لا يؤبه له! فإنه مع صحة النية، يبارك الله عز وجل في الأعمال.

وقد تبين صفة ما طلب:

ـ جملةٌ مختصرة من واجب أمور الديانة، فطلب الاختصار، والاقتصار.

- أن يكون ذلك مما يتعلق بنطق اللسان، واعتقاد الجنان، وعمل الأركان، دون فضول العلم.

- ما يتصل بالواجب من السنن المؤكدة، والنوافل، والرغائب، والآداب.

- جمل من أصول الفقه وفنونه، أراد أمهات المسائل الفقهية، لا الفن المخصوص.

- كون ذلك على مذهب الإمام مالك بن أنس، وطريقته. كأنما أراد بالمذهب قول مالك، وبالطريقة قول أصحابه تخريجًا على قوله.

- التسهيل والبيان المستمد من الفقهاء الراسخين؛ تيسيرًا لفهم الولدان الدين والشريعة.

كما نستنبط من هذه الخطبة: عناية السلف بالإجابة على الأسئلة، وأخذهم بالميثاق الذي أوجبه الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. فلم يستنكف المصنف عن الجواب لكون السائل معلم كُتَّاب، والمستهدفون ولدان صغار. بل احتفى بالسؤال، وحرر الجواب، وحبَّرَه تحبيرًا، تعظيمًا لهذه المسؤولية التي أُنِيطَتْ بأهل العلم.

كما نستفيد من هذه الخطبة: عناية السلف بتربية النَّشْئ، وتلقينهم ما ينفعهم؛ فإن العناية بالناشئة، وتربية الفتيان على ما ينفعهم، صَاحَبَ ظهور هذا الدين، وحسبنا مثلًا: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فإنه أول من آمن من الصبيان، قبل كثير من الرجال والنساء. بل إن كثيرًا من السابقين إلى الإسلام كانت أعمارهم دون العشرين.

وكثير من المسلمين اليوم، وللأسف، ضيعوا هذه الأمانة، وتركوا صبيانهم لشاشات التلفاز، والمقاطع المرئية والمسموعة، والقصص المصورة، التي تلوِّث أفكارهم وأنظارهم، ولم يحسنوا اغتنام مواهبهم الفطرية في الحفظ والتلقين؛ بل أهدروها في التفاهات والعبثيات.

إن قلب الناشئ كالمِرْآة التي تنعكس عليها الصورة، وكالصلصال الذي ينتقش فيه الرسم. فإذا أهملوا، وتركوا سبهللًا، اجتالتهم شياطين الإنس والجن، ولوثت عقولهم، وأفسدت أخلاقهم؛ كما قيل: صادف قلبًا خاليًا فتمكنا. وإن حظوا بتربية صالحة، ورعاية رشيدة، نشؤوا وترعرعوا على الفطرة السوية، والأخلاق القويمة.

فالواجب على الأولياء أن يقرعوا آذانهم، ويفتقوا أفواههم بكلام الرب ﷻ، ويعودوهم على ثَنْيِ الركب في حِلَقِ القرآن، ومجالس العلم والذكر، فيألفوا معالي الأمور، ويترفعوا عن سفاسفها.

وقد أشار المصنف رحمه الله، إلى أثر بصيغة التمريض، في (أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الرب)، ولا يصح مرفوعًا. (وأن التَّعْلِيمُ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الحَجْرِ)[1]، وهو ضعيف أيضًا، لكن معناه صحيح، مُدْرَكٌ بالعقل وبالحس. فما يتعلمه الإنسان في صغره ينتقش في عقله، ولا يزول عنه. واعتبر ذلك في نفسك! تجد أن أثبت محفوظاتك ما حفظته في صباك، وحين كبرت، صرت تحفظ الشيء أول النهار وربما تنساه آخره.

وهذا منهج تعليمي ينبغي للمربين أن ينتبهوا إليه، فإن القوم ما قالوا ذلك إلا عن تجربة. ومن دواعي الأسف أن نسمع من بعض الناس من يُهَوِّنُ من شأن الحفظ، ويقول: لا تثقلوا عقول الأطفال بالمحفوظات! وهذا خلاف ما كان عليه السلف. كان السلف يحرصون على تحفيظ الصبيان القرآن والسُّنَّة، والمتون النافعة. ويجد الإنسان غُنْمَهَا في مستقبل الأيام.



(١) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة رقم (٦١٨).

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

❁ (وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون ـ إن شاء الله ـ بحفظه، ويشرفون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به. وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر، ويفرق بينهم في المضاجع. فكذلك ينبغي أن يعلَّموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم؛ ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم.

وقد فرض الله سبحانه على القلب عملًا من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظاهرة عملًا من الطاعات. وسأفصل لك ما شرطتُ لك ذكره بابًا بابًا؛ ليقرب من فهم متعلِّميه إن شاء الله، وإياه نستخير، وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلَّى الله على سيدنا محمد نبيّه وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا).

الشرح

أسَّس المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ منهجه في التعليم على قوله ﷺ: «**مُرُوا أبناءكم بالصلاة لسبعِ سنينَ، واضْربوهم عليها لعشر سنين، وفرقُوا بينهم فِي المضاجع**»[1]؛ فدل الحديث على أن سن السابعة سن التمييز، فلا يُؤْمَرُ الصبي بالصلاة قبلها، ولا يُرَدُّ إذا شهدها، فإذا أتم سبع سنين أُمِرَ بالصلاة أمرًا، فإذا بلغ عشر سنين ضُرِبَ على تركها ضربًا غير مُبَرِّح، كي يلزم هذه الشعيرة العظيمة، ويألفها. وأما ما يدعيه بعض «التربويين» اليوم، من أن الضرب مذموم مطلقًا، فهو غلط؛ بل الضرب وسيلة تربوية، وعقوبة حسية مفيدة، في

(١) أخرجه أحمد رقم (٦٧٥٦)، وصححه أحمد شاكر، وحسنه غيره..

موضعه. وليس المقصود الضرب لغير داع، أو الضرب المبرح، أو المصحوب بالحَنَقِ والشدة والتشفي؛ بل الضرب الذي يحصل به قدر من الإيلام، يشعر بالنفرة من سلوك معين. وهو أسلوب قد اعتمده الشارع في تربية الصبيان، وفي تأديب المرأة الناشز، فقد قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

فلو قيل: من شروط وجوب الصلاة البلوغ، فلا يلزم الصبي صلاة، ولا يؤاخذه الله على تركها. قيل: هذا حق! ولكن يجب على وليه أن يأمره لسبع، ويضربه على تركها لعشر؛ ليألفها، ويلتزم بها إذا وجبت عليه. ولو قيل: إن من شروط وجوب الصوم البلوغ، فلا يجب على الصبي صوم، ولا يؤاخذه الله على تركه. قيل: هذا حق! لكن يجب على وَلِيِّهِ أن يمرنه عليه، فإذا وجب عليه أطاقه. وقد كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يُصَوِّمُونَ صبيانهم، فإذا جاعوا، أو عطشوا، وبكوا، دفعوا إليهم بِالعُهْنِ: وهو الصوف؛ ليلعبوا به، ويَتَسَلَّوْا به إلى مغيب الشمس. عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ، قَالَتْ: أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ عَاشُورَاءَ إِلَى قُرَى الأَنْصَارِ: «**مَنْ أَصْبَحَ مُفْطِرًا، فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ، وَمَنْ أَصْبَحَ صَائِمًا، فَلْيَصُمْ**»، قَالَتْ: فَكُنَّا نَصُومُهُ بَعْدُ، وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا، وَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعْبَةَ مِنَ العِهْنِ، فَإِذَا بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ، أَعْطَيْنَاهُ ذَاكَ حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ الإِفْطَارِ(١).

فعلى أهل الإسلام، أن يُرَوِّضُوا أبناءهم وبناتهم على معالي الأمور، وأمهات العبادات والأخلاق، حتى يأنسوا بها، فإذا بلغوا صاروا مُؤَهَّلِينَ لتحملها، وهذا من أصول التربية.

وقد نبَّه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ على أن فرائض الله تعالى نوعان: علمية؛ تتعلق بالقلب، وعملية؛ تتعلق بالجوارح، ووعد السائل بتفصيلها له على ما شَرَطَ بابًا بابًا، وقد وفَّى وكفى.

(١) أخرجه البخاري رقم (١٩٦٠) واللفظ له، ومسلم رقم (١١٣٦).

قوله: (وإياه نستخير): الاستخارة: طلب الخِيرَة، أو طلب خير الأمرين. وهي عبادة لا غنى للمؤمن عنها، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن ويقول: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ**»(١)، وذكر دعاء الاستخارة. فعلى طالب العلم أن يحرص عليها فيما يكتب، فقد تُحَدِّثُهُ نفسه أن يحرر شيئًا وقد يكون لهذا التحرير أثر غير حميد، وقد تَزِلُّ به قدم، أو يهفو به قلم، فيحصد الندم! فاستخر مولاك قبل أن تحرر شيئًا يطير في الآفاق، ولا تتمكن من رده.

قوله: (وبه نستعين): الاستعانة: طلب العون. قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال نبيُّنا ﷺ لابن عباس: «**وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»(٢)، وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ رَسُولَ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ! لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٣). وكثير من الناس، ومن طلبة العلم، يجد في نفسه قوة ورغبة واندفاعًا لعمل الشيء، ويغيب عنه معنى الاستعانة. فاستعن بمعبودك للوصول إلى مقصودك. وقد قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

قوله: (ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)؛ أي: لا تحوُّل من حال إلى حال إلا بأمر الله وتيسيره، فإنه العلي في ذاته، وقهره وقدره، العظيم الذي لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه. وهذه كلمة مباركة، يسهل الله بها الأمور، ويذلل بها الصعاب. عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: كنت

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٣٨٢).
(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في كتاب «التوسل» رقم (٣٥).
(٣) أخرجه أبو داود رقم (١٥٢٢)، وأحمد رقم (٢٢١٢٦)، والنسائي في الكبرى رقم (٩٨٥٧).

خَلْفَ دَابَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَمِعَنِي وَأَنَا أَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَقَالَ لِي: «**يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟**»، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، قَالَ: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»(١).

قوله: (**وصلَّى الله على سيدنا محمد نبيّه وآله وصحبه**): الصلاة من الله على نبيِّه: ذكره إياه في الملأ الأعلى. قَالَ أَبُو العَالِيَةِ: «صَلَاةُ اللهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ المَلَائِكَةِ»(٢). قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

والآل: مأخوذٌ من الأوْل، وهو الرجوع(٣). فآل الرجل: ذووه، ومن ينتمي إليهم. فإذا جاء منفردًا، غير مقرون بذكر الصحب، فالمراد به: أتباعه على دينه إلى يوم القيامة. وإذا جاء مقترنًا بالصحب، فالمراد به: المؤمنون من أهل بيته. والصحب: جمع صاحب، أو صحابي، وهو: من لقي النبي ﷺ، في حياته، مؤمنًا به، ومات على ذلك.



(١) أخرجه البخاري رقم (٤٢٠٥)، ومسلم رقم (٢٧٠٤).
(٢) صحيح البخاري (٦/ ١٢٠).
(٣) انظر: القاموس المحيط، المصباح المنير (مادة: آلَ).

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات:

من ذلك الإيمانُ بالقلب، والنُّطقُ باللِّسان، أنَّ الله إلٰهٌ واحدٌ، لا إلٰه غيرُه، ولا شبيهَ له، ولا نَظيرَ له، ولا وَلَدَ له، ولا وَالِدَ له، ولا صاحبة له، ولا شريكَ له).

الشرح

قوله: (باب): جرت عادة المصنفين تقريب العلم بتقسيمه إلى: كتب وأبواب وفصول ومسائل؛ نزولًا من الأعم إلى الأخص. فالباب يضم جملة من المسائل. ويقال: إن ما احتوى عليه هذا الباب، على قصره، مائة مسألة.

وكلمة (باب) يصلح أن تكون مطلقة، بغرض الفصل وحسب، ويصلح أن تكون مضافة، والتقدير: هذا باب بيان كذا وكذا. وإنما جمع (الديانات) باعتبار مسائل التدين، أو باعتبار المتدينين.

وقد عقد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب لبيان أهم المهمات، وأوجب الواجبات، التي تنطوي عليها القلوب، وتعبر عنها الألسنة، وبدأ بما بدأ الله به، وهو التوحيد.

(التوحيد وأنواعه)

قوله: (أن الله إلٰه واحد لا إلٰه غيره): قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال: ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام: ١٩]، [إبراهيم: ٥٢]، [النحل: ٥١]، وقال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٢٢]، وقال: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]،

[الأنبياء: ١٠٨]، [فصلت: ٦]، وقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الحج: ٣٤]. فهذه أحد عشر موضعًا في كتاب الله على نسق واحد في إثبات الوحدانية.

فالتوحيد أصل الدين، وخلاصة دعوة المرسلين، ولأجله خلق الله الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجنة والنار.

۞ والتوحيد الذي بعث الله به الرسل نوعان:

١ ـ توحيد في «المعرفة والإثبات»، ويسمى: التوحيد العِلْمِي، أو الخبري.

٢ ـ وتوحيد في «القصد والطلب»، ويسمى: التوحيد العَمَلِي، أو توحيد العبادة.

وقد دلَّ على النوع الأول سورة الإخلاص، التي تضمنت العلم بالله ﷻ، بمقتضى أسمائه وصفاته؛ كما قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾، فأثمرت معرفة قلبية بأن الله أحد، لا والد له ولا ولد، ولا مثيل له ولا نظير، ولا كفء له ولا ند. صمد سيد مالك، تصمد إليه الخلائق في حاجاتها وملماتها. فهذا النوع من التوحيد علمي معرفي ثبوتي، محله القلب، فلذلك، سمي توحيد المعرفة والإثبات، وهو الأساس والأصل للنوع الثاني.

ودلَّ على النوع الثاني سورة الكافرون، التي تضمنت إفراد الله بالعبادة، والبراءة التامة من الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾، فأثمرت إسلام الوجه لله، وإخلاص العمل له.

والنوع الأول مَغْرُوسٌ في الفِطَرِ، مقبول من عامة الخلق، ولهذا، لم ينازع المشركون في توحيد الربوبية؛ بل أقروا به، كما قال ربنا ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ

قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩]. فكانوا مُقِرِّينَ، من حيث الجملة، بتوحيد الربوبية، وإن شاب توحيدهم به بعض الشوائب والبدع، لكنهم يعلمون أن الله ﷻ هو الخالق والرازق والمدبر، وأنه يجير ولا يجار عليه، ويطعم ولا يطعم. وإنما نازعوا في النوع الثاني، وهو توحيد العبادة. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، وقال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٤ ـ ٧].

ولا ريب أن إقرارهم بالأول، وإنكارهم للثاني تناقض فاضح! قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣]، فكيف يكونوا أهلًا للعبادة؟! فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية.

وقد كان العرب الذين بُعِثَ فيهم النبي ﷺ يعرفون الله ﷻ ويَحُجُّونَ بيته، ويعظمون المشاعر، ويطعمون الحاج، ولكنهم يفسدون ذلك بالشرك؛ كانوا يحجون ويلبون، ويقولون: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، ملكتَه وما مَلَكَ»! إذ كانوا في الأصل على الحنيفية، دين إبراهيم عليه السلام، حتى خرج فيهم «عمرو بن لُحَيّ الخزاعي»، وأدخل عليهم عبادة الأصنام. ويقال: إنه كان له رِئْيٌ من الجن، أتاه وقال له: ائت جدة، تجد أصنامًا مُعَدَّة، وادع إليها العرب تُجب. فذهب واستخرج تلك الأصنام وبثها في قبائل العرب فعبدوها، وصار لكل قبيلة صنم يعبدونه من دون الله ﷻ. وأتى بـ«هبل» من بلقاء الشام، وجعله في البيت.

وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، فحين دخل النبي ﷺ عام الفتح جعل يطعنها بِحَرْبَتِه فتتساقط وتتهاوى، وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ فَجَاءَتْهُ قُرَيْشٌ، وَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَ أَبِي طَالِبٍ مَجْلِسُ رَجُلٍ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ كَيْ يَمْنَعَهُ، قَالَ: وَشَكَوْهُ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟ قَالَ: «**إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا العَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ العَجَمُ الجِزْيَةَ**». قَالَ: كَلِمَةً وَاحِدَةً؟ قَالَ: «**كَلِمَةً وَاحِدَةً**»، قَالَ: «**يَا عَمِّ يَقُولُوا: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ**»، فَقَالُوا: إِلهًا وَاحِدًا! مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ. قَالَ: فَنَزَلَ فِيهِمُ القُرْآنُ: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾[1] [ص: ١ ـ ٧].

هذا هو الفرق بين التوحيد والشرك، فتوحيد العبادة حَلَبَةُ الصراع، ومُعْتَرَكُ النزاع، بين الأنبياء وأقوامهم، ويخطئ من يظن أن الأنبياء بعثوا بإثبات وجود الله، أو ربوبيته. فإن وجود الله ثابت في الفِطَرِ، مستقر في القلوب، مُسَلَّمٌ في العقول، لا يحتاج الإنسان إلى كبير جهد لإثباته؛ بل يعرفه الصبي بفطرته، والشيخ العجوز، والأعرابي، ببداهته.

أما المتكلمون فقد عُنُوا بإثبات وجود الله! وأفنوا أعمارهم، وسوَّدوا أوراقهم بتقريره. ويقال: إن أبا المعالي الجُوَيْنِيّ كان في نيسابور، وكان الناس يمشون بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، فَأَطَلَّتْ عجوز من كوَّة بابها، فقالت: من هذا؟ قالوا: هذا الجويني، قالت: ومن الجويني؟ قالوا: هذا الذي يقيم على وجود الله ألف دليل! فضحكت، وقالت: وهل يحتاج ذلك إلى ألف دليل. ويقال: إن أبا المعالي رحمه الله وعفا عنه، حين حضرته الوفاة، تمنى أن يموت على عقيدة عجائز نيسابور؛ لبقائهن على الفطرة الأصلية.

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٢٣٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وبعض العلماء يجعل التوحيد **ثلاثة أنواع**:

١ ـ توحيد الربوبية.

٢ ـ توحيد الإلٰهية.

٣ ـ توحيد الأسماء والصفات.

وليس بين التقسيمين؛ الثنائي والثلاثي، تعارض؛ فإن توحيد المعرفة والإثبات يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وأما توحيد القصد والطلب فهو توحيد الألوهية.

وهذه تقسيمات فنية استقرائية، بغرض تقريب العلم، ومن الناس من يُشْغِبْ ويقول: من أين لكم هذه التقسيمات والتنويعات؟ أَقَالَ رسول الله ﷺ: التوحيد قسمان! أَقَالَ: التوحيد ثلاثة أنواع! إلى غير ذلك من الإيرادات. والجواب عن ذلك: أنه لم يقل ذلك، كما أنه ﷺ لم يقل: أركان الصلاة أربعة عشر ركنًا، وواجباتها تسع، ولم يقل: فروض الوضوء ستة، ولكن هذه التقديرات أدركها العلماء بالتتبع والاستقراء، وليست من البدع والمحدثات؛ بل هي وصف للواقع، والغاية منها تقريب العلم إلى الأذهان، فإن ذلك يعين على الحفظ والتصور. والشارع الحكيم يعدد أحيانًا ويجمل أحيانًا.

النوع الأول: **توحيد الربوبية**: وهو توحيد الله بأفعاله؛ من الخلق والملك والتدبير. وعلى هذه الثلاث مدار الربوبية، فإن الرب: هو السيد المالك الآمر الناهي، الذي ربى عباده بنعمه. فوجب توحيده بذلك.

ـ **فالله الخالق لا خالق سواه**: فإن قال قائل: أليس قد قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]، فأثبت عدة خالقين!؟ فالجواب: إن الخلق المضاف إلى غير الله ﷻ، ليس بمعنى الإنشاء من العدم، وإنما هو التشكيل والتصوير. أما خلق الرب سبحانه، الذي لا يشركه معه أحد سواه، فهو إنشاء من العدم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١]، فما ثَمَّ في الكون إلا خالق أو مخلوق؛ فالله الخالق وما سواه مخلوق.

- **والله المالك، لا مالك سواه**: فإن قال قائل: أليس قد أثبت الملك لغيره، فقال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، وقال: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢]، وقال: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وهذه لام التمليك!؟ فالجواب: إن هذا الملك المضاف إلى غيره مِلك نسبي مؤقت مقيد، أما ملك الرب ﷻ، فهو ملك مطلق شامل. ومما يدل على أن ملك غير الله ملك مؤقت، أن الإنسان يَدَعَهُ لوارثه، ولا يبقى محبوسًا عليه، والوارث بعد ذلك الله هو ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠]، كما أنه مقيد؛ فلو أن إنسانًا همَّ أن يُتْلِفَ ماله ويحرقه لضربنا على يده، وحجرنا عليه.

- **والله المدبر، لا مدبر سواه**: فإن قال قائل: أليس قد أثبت لغيره مشيئة وإرادة وفعلًا، فقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨]، وقال: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]!؟ فالجواب: إن هذه المشيئة، وهذا الفعل، داخلان تحت مشيئة الله ومفعوله، وتقديره، ولذلك، أتبعها بقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

فمعنى توحيد الربوبية: إفراده تعالى بالخلق والملك والتدبير. وسائر صفات الربوبية مندرجة تحت هذه الثلاثة؛ كإنزال المطر، وإنبات الزرع، وإدرار الضرع، والصحة والمرض، والحياة والموت.

النوع الثاني: **توحيد الألوهية**: وهو توحيد الله بأفعال العباد؛ بأن يوحِّد العبد ربه بالعبادة فلا يشرك معه أحدًا، سواءٌ كانت عبادة قلبية؛ كالحب والخوف والرجاء والتوكل ونحوها، أو عبادة قولية؛ كالذكر، والدعاء، أو عبادة مالية؛ كالصدقة والزكاة، أو عبادة بدنية؛ كالركوع والسجود والطواف ونحو ذلك.

فمعنى توحيد الألوهية: إفراده سبحانه بالعبادة، ومقتضاه: أن من صرف

شيئًا من أنواع العبادة لغير الله، فقد حبط عمله، وخرج من الملة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]، ولما سئل النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»(١).

قال ابن فارس: (أَلَهَ: الْهَمْزَةُ وَاللَّامُ وَالْهَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ. فَالْإِلٰهُ اللهُ تَعَالَى، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مَعْبُودٌ. وَيُقَالُ: تَأَلَّهَ الرَّجُلُ: إِذَا تَعَبَّدَ. قَالَ رُؤْبَةُ:

لِلَّـهِ دَرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّهِ   سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي)(٢)

فالإِلٰه: بمعنى اسم المفعول «مألوه»؛ أي: معبود، وهو من تألهه القلوب محبةً وتعظيمًا؛ من الوله والتعلق والانجذاب. وليس بمعنى اسم الفاعل «آلِه»، كما فسره المتكلمون بالقادر على الاختراع! وأخرجوه من معنى الألوهية إلى الربوبية. فمعنى كلمة التوحيد: «لا إلٰه إلا الله»؛ أي: لا معبود ـ بحق ـ إلا الله. وهي دعوة الأنبياء جميعًا، فإن الله ﷻ ما بعث رسولًا إلا أمره أن يُبادئ قومه بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فامتثلوا أمره، وقال قائلهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

النوع الثالث: **توحيد الأسماء والصفات**: وهو توحيد الله بما يختص به من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، واعتقاد المثل الأعلى؛ كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧]، ومقتضى ذلك: إثبات الكمال له وحده، ونفي المثيل؛ كما جمع بينهما في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٤٧٧)، ومسلم رقم (٨٦).
(٢) معجم مقاييس اللغة (١/١٢٧).

ومصطلح (**الأسماء الحسنى**) قد دلَّ عليه ناطق الكتاب في أربعة مواضع من القرآن: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٨]، ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤]. وفي صحيح السُّنَّة: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا؛ مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١).

ومصطلح (**الصفات**) ثابت في صحيح السُّنَّة؛ ففي صحيح البخاري: أن النبي ﷺ بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**سَلُوهُ، لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**»، فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمٰن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**»(٢). والشاهد أنه قال: صفة الرحمٰن، فأقره النبي ﷺ؛ خلافًا لمن أنكرها من الجهمية والمعتزلة.

ومعنى توحيد الأسماء والصفات: إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو أثبته له نبيّه ﷺ في سُنَّته، من غير تمثيل ولا تكييف، ومن غير تعطيل ولا تحريف.

قوله: (**ولا شبيهَ له، ولا نَظيرَ له، ولا وَلَدَ له، ولا وَالِدَ له، ولا صاحبة له، ولا شريكَ له**): نزَّه المصنف الله تعالى عن ستة أمور تنافي وحدانيته وكماله. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]، وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٣]، وقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. ووجه نفي الشبيه، والنظير، والشريك، ظاهر. ووجه نفي الولد والوالد والصاحبة، أن ذلك يتنافى مع الوحدانية والكمال:

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٧٣٦)، ومسلم رقم (٢٦٧٧).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٣٧٥)، ومسلم رقم (٨١٣).

- فالولادة والزوجية تقتضي التجانس بين الطرفين. والله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

- الولد والزوجة يدلان على الحاجة، والله تعالى غني عما سواه.



ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ليس لأَوَّلِيَّتِهِ ابتداءٌ، ولا لآخِرِيَّتِه انقضَاءٌ، لا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الواصفون، ولَا يُحيطُ بأمرِه المُتَفَكِّرونَ، يَعتَبِرُ المتفَكِّرون بآياته، ولا يَتَفكَّرونَ في مَائيَّةِ ذاتِه، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]. العالِمُ الخبيرُ، المُدَبِّرُ القَدِيرُ، السَّمِيعُ البصيرُ، العَلِيُّ الكَبيرُ)

الشرح

قوله: (ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انقضاء): قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣]، وقد فسَّر نبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الأسماء الأربعة، فقال في مناجاته لربه عَزَّوَجَلَّ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»(١). قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية، ومكانية. فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر. وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن؛ فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه... فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد: فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا)(٢).

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٧١٣).
(٢) طريق الهجرتين (٤٧).

فهو الأول سبحانه له الأولية المطلقة؛ كما في حديث عمران بن الحصين ﵁، مرفوعًا: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**»(١).

وهو الآخر الباقي بعد فناء الخلائق؛ كما في حديث عَبْدِ اللهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَطْوِي اللهُ ﷻ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»(٢).

وهو الظاهر فليس فوقه شيء، قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

وهو الباطن فليس دونه شيء، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، وفي الحديث: «**إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**»(٣).

قوله: (**ولا يبلغ كُنْهَ صفته الواصفون**): الكنه: من الكينونة، وهي الكيفية والحقيقة. فلا سبيل للإحاطة به؛ لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فكل ما خطر ببالك من الهيئات والكيفيات فالله ليس كذلك، لا تحيط به العقول، ولا تبلغه الأوهام ﷻ.

قوله: (**ولا يحيط بأمره المتفكرون**): قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠].

قوله: (**يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في مائية ذاته**): وفي بعض النسخ: «**في ماهية**»، فالمائية مشتقة من (ما)، والماهية مشتقة من (ما هو). والمقصود أن وظيفة العقل التفكر في مخلوقات الله، لا التفكر في ذات الله؛ فإنه مهما أجهد الذهن، وأمعن الفكر في تقدير كيفية ذات الله ﷻ، فإنه

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤١٨).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٤١٢)، ومسلم رقم (٢٧٨٨) واللفظ له.
(٣) أخرجه أحمد رقم (١٩٥٩٩)، والنسائي في الكبرى رقم (٧٦٨٠).

ينخنس، وينقلب خاسئًا وهو حسير. فالتفكر في الذات ضرب من العبث لا طائل من ورائه. فهو ممتنع عقلًا، محرمٌ شرعًا.

والمشروع للعبد أن يعمل ذهنه في التفكر في مخلوقات الله ﷻ، الموصلة للعلم به سبحانه، ومعرفة آلائه، قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۞﴾ [ق: ٦ ـ ٨].

أما حديث: (تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ)[(١)]، فليس في الصحاح ولا في السنن، ولكن قد رواه ابن عدي، والطبراني في «الأوسط»، وابن أبي الشيخ في «العظمة»، رُوِيَ عن ابن عباس، وابن عمر، بألفاظ متقاربة، مثل: (تَفَكَّرُوا فِي مَخْلُوقاتِ اللهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللهِ)، (تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ فَتَهْلِكُوا)، وجميع طرقه لا تخلو من مقال، لكن الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله، قال: فتبين بذلك أن الحديث حسن بمجموع طرقه عندي[(٢)]. فالتفكر في المخلوقات من دواعي الإيمان. وحسبنا أن نقول: إن الحديث لا يصح سندًا، لكن معناه صحيح، فنحن مأمورون بالتفكر والنظر والتبصر في آلاء الله ومخلوقاته، منهيون عن التفكر في ذات الله وكيفية صفاته. أما التفكر في معاني أسمائه وصفاته فهو أشرف العلوم.

قوله: (﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۞﴾): هذا اقتباس من آخر آية الكرسي، وهي أعظم آية في كتاب الله؛ فقد سأل النبي ﷺ أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه، وهو أَقْرَأُ هذه الأمة لكتاب الله، فقال له: «**أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ؟**»، فقال

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٦٣١٩)، وأبو الشيخ في العظمة (ص٢١٠)، وابن عدي (٧/ ٩٥، ترجمة (٢٠١٧) وازع بن نافع العقيلي)، قال الهيثمي: فيه الوازع بن نافع وهو متروك (١/ ٨١)، (٦٣١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٣٦/ ١٢٠)، وقال البيهقي: هذا إسناد فيه نظر.

(٢) السلسلة الصحيحة رقم (١٧٨٨).

أبيٌّ متأدبًا مع النبي ﷺ: الله ورسوله أعلم، فأعاد عليه، فقال: آية الكرسي، قال: «**لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»[(١)]، يعني: هنيئًا لك العلم. وذلك أن هذه الآية الشريفة أُفْرِدَت في صفة الرب ﷻ، وهي عشر جمل؛ كل جملة تدل على صفة أو اسم أو فعل من أسماء الله، أو صفاته، أو أفعاله. ومن فضائلها: «**أن من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح**»[(٢)].

والمستثنى بقوله: ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، هو ما دلَّ عليه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، وفي قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، قال ﷺ: «**فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ**»[(٣)].

فعلم الله واسع لا يحيط به حد، وبعض السفهاء يتحدث عن الكشوف الحديثة، والمخترعات العصرية، ويزعم أن قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾، كان فيما مضى! أما الآن، فقد اتسعت العلوم والمعارف، وبات كثيرًا! والحق أنه مهما اكتُشِفَ، ومهما اختُرِعَ، يظل قليلًا جدًّا بجنب علم الله تعالى.

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما الكرسي بأنه: موضع القدمين[(٤)]، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف، والكرسي غير العرش، العرش أعظم من الكرسي، فقد جاء في الحديث: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعِ، وَالأَرَاضِينَ السَّبْعِ، عِنْدَ الكُرْسِيِّ إِلَا كَحَلقةٍ أُلقِيتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَفَضْلَ الْعَرْش عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاة عَلَى الْحَلْقَةِ**»[(٥)]. كما لا يجوز تأويله بالعلم، كما فعل المتكلمون.

(١) أخرجه مسلم رقم (٨١٠).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٣١١).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٤٠١).
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٦٨٠).
(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٠٩).

قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾؛ لا يعجزه، ولا يكرثه حفظ السماوات والأرض.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾؛ هذان اسمان شريفان جليلان من أسماء الله الحسنى دالان على علوه وعظمته في ذاته وصفاته.

قوله: (العالِمُ الخبيرُ، المُدَبِّرُ القَدِيرُ، السَّمِيعُ البصيرُ، العَلِيُّ الكَبيرُ): هذه ثمانية أسماء من أسماء الله الحسنى:

قوله: (العالم): و«العليم» و«العلام» من أسماء الله الحسنى، وأدلتها من الكتاب والسُّنَّة كثيرة شهيرة، تتضمن إثبات صفة العلم. وعلم الله ﷻ محيط بكل شيء، شامل لما كان ويكون وما سوف يكون، وما لم يكن كيف لو كان يكون.

والعبد يوصف بالعلم ويسمى عليمًا، قال الله ﷻ: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ٢٨﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقال عن نبي من أنبيائه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٍ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨]، وقال: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧]. والفرق بين علم المخلوق وعلم الخالق: أن علم الخالق محيط بكل شيء، وعلم المخلوق قاصر محدود. كما أن علم الخالق غير مسبوق بجهل، ولا يلحقه نسيان. وعلم المخلوق مسبوق بالجهل ويلحقه النسيان. قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨]، ثم لا يزال هذا الإنسان يتلقى المعلومات عبر منافذ التعلم؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ﴾ [النحل: ٧٨]، حتى يبلغ شأْوًا كبيرًا، ويحمل الألقاب العلمية الرفيعة، ثم يؤول إلى النسيان، قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾ [النحل: ٧٠]، فإذا بهذا المخزون العلمي الذي تراكم عبر عقود من الزمن يأخذ في الاضمحلال والتلاشي والتحلل حتى يصل الإنسان إلى درجة الخرف؛ فيقال له: ما اسمك؟ فلا يحير جوابًا؟!

قوله: (الخبير): أي: العليم ببواطن الأمور، وخفاياها ودقائقها.

قوله: (المدبر): ليس من أسماء الله الحسنى، ولكن باب الأخبار أوسع

من باب الأسماء، فيجوز أن يخبر عن الله ﷻ بخبر صحيح مطابق للواقع، لا يتضمن نقصًا، ولو لم يكن من الأسماء الحسنى؛ قال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**»(١). وليس من أسماء الله الحسنى المُنْزِل، ولا المجْرِي، ولا الهازم. فيجوز الإخبار عن الله ﷻ بأنه المدبر.

قوله: (القدير): أي: الذي له القدرة التامة، والقدرة: وصف يُتَمَكَّنُ فيه من الفعل من غير عجز، أما القوة فهي وصف يتمكن فيه من الفعل من غير ضعف.

قوله: (السميع البصير): تقدم بيانهما.

(صفة العلو)

قوله: (العلي): من له العلو المطلق. وعلو الله **ثلاثة أنواع**:

- **علو الذات**: ومعناه: أن الله ﷻ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، فلا شيء فوقه.
- **علو القهر**: ومعناه: أن الله قهر جميع المخلوقات وغلبها، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١].
- **علو القدر**: ومعناه: أن الله تعالى له المثل الأعلى في كل صفة اتصف بها، فله من السمع أعلاه، وله من البصر أعلاه، وله من القدرة أعلاها، وله من القوة أعلاها، وهكذا في جميع الصفات، ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الروم: ٢٧].

ولا خلاف بين أهل القبلة في إثبات علو القهر، وعلو القدر، ومن نازع في ذلك فقد كفر، وإنما وقع الخلاف في علو الذات. ولم يزل المسلمون منذ عهد النبي ﷺ، إلى يومنا هذا، يعتقدون أن الله تعالى فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه.

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٩٦٦)، ومسلم رقم (١٧٤٢).

وإنما شذ عن هذا السبيل جماعة المتكلمين الذين اشتغلوا بالمنطق اليوناني، وتأثروا بالمناهج العقلية، فأَدَّى بهم ذلك إلى هجران نصوص الكتاب والسُّنَّة، والزهد بطريقة السلف، وأنتج لهم كثيرًا من المقالات الفاسدة، منها إنكار علو الذات. واضطربت مقالاتهم؛ فمنهم من يقول: إن الله في كل مكان، وهو قول حلولية الجهمية، ومنهم من ينفي عنه الجهات السِّتِّ؛ فيقول: لا أمام ولا خلف، ولا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا يسار! ومنهم من يقول: لا تجوز الإشارة الحسية إليه في السماء! مع أن النبي ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**»، قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[(١)].

وعلو الذات ثابت ثبوتًا قطعيًّا لا شك فيه، وقد دلَّ على ثبوته جميع **أنواع الدلالات**:

أولًا: **دلالة الكتاب والسنة**: ولا حصر لها، حتى قال بعض علماء الشافعية: إن في القرآن العظيم أكثر من ألف دليل على إثبات علو الله[(٢)]؛ فمن أنواع أدلة الكتاب والسُّنَّة على إثبات علو الله ﷻ:

١ ـ التصريح بلفظ العلو: قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٩].

٢ ـ ذكر صعود الأشياء إليه: قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، والصعود لا يكون إلا إلى أعلى.

٣ ـ ذكر عروج الأشياء إليه: قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، والعروج لا يكون إلا إلى أعلى.

٤ ـ ذكر رفع الأشياء إليه: قال تعالى عن عيسى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، والرفع لا يكون إلا إلى أعلى.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٢١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢١)، الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٩).

٥ ـ ذكر كونه في السماء، قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، ومعنى ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: من على السماء؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ يعني: على جذوع النخل، وقال: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]؛ يعني: على الأرض، ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]؛ يعني: على مناكبها، فإن حروف الجر تتناوب. وقال النبي ﷺ للجارية: «**أَيْنَ اللهُ؟**»، قالت: في السماء، قال: «**مَنْ أَنَا؟**»، قالت: أنت رسول الله، قال: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[١].

٦ ـ ذكر الاستواء: لأن معنى الاستواء في لغة العرب: العلو؛ فاستواء الله على عرشه الذي هو سقف المخلوقات دليل على علوه، وسيأتي له مزيد بيان.

ثانيًا: **دلالة الإجماع**: أجمع السلف على إثبات علو الله بذاته، كما حكى ذلك الإمام الأوزاعي، قال: (كُنَّا والتابعون متوافرون نقولُ: إن الله تعالى مُستوٍ على عرشه، ونؤمن بما جاءت به السُّنَّة من الصِّفات)[٢].

ثالثًا: **دلالة العقل**: العقل يقطع أن الخالق لا بد أن يكون متصفًا بصفات الكمال، والعلو صفة كمال؛ والسفل صفة نقص، فلا شك أن العلو هو اللائق به سبحانه وتعالى.

رابعًا: **دلالة الفطرة**: الفطرة ما غُرِزَ في النفس بغير سبق تعليم. تجد الأطفال الصغار من دون أن يلقنهم آباؤهم أو أمهاتهم يدركون أن الله في العلو، وإذا حُدِّثُوا به لم يستنكروه؛ كما أن العامة، والشيوخ العجائز، الباقين على فطرتهم يجدون ذلك أيضًا.

ويُحْكَى في هذا المقام مناظرة جرت بين أبي المعالي الجُوَيْنِي وأبي جعفر الهَمَذَانِي، وكان الجويني، رحمه الله وعفا عنه، قد دخل في علم الكلام، وبات من أساطين المذهب الأشعري. وكان جالسًا على كرسيه يقرر

(١) أخرجه مسلم رقم (٥٣٧).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٨).

قائلًا: كان الله ولا شيء، وهذه جملة صحيحة؛ لأن الله هو الأول، ثم أردف بقوله: وهو الآن على ما كان عليه، يُعَرِّض بنفي الاستواء؛ لأن الأشاعرة ينكرون الصفات الفعلية، ويتوهمون أن ذلك من قبيل حدوث صفة لم يكن متصفًا بها! وأهل السُّنَّة يعتقدون ما دلَّ عليه صريح القرآن؛ أن الله ﷻ حين خَلْقِ السماوات والأرض لم يكن مستويًا على العرش، ثم استوى عليه؛ كما أخبر عن ذلك في سبعة مواضع. فتنبه أبو علي الهمداني لهذا القصد، فقال: دعنا من ذكر العلو والاستواء، وأخبرنا عن هذه الضرورة التي يجدها أحدنا في قلبه؛ فما قال عارف قط: يا الله! إلا وجد في قلبه ضرورة بطلب العلو لا يلتفت يَمْنَةً ولا يَسْرَةً! فجعل الجويني يلطم رأسه ويقول: حَيَّرَنِي الهَمَدَانِي، حَيَّرَنِي الهَمَدَانِي(١)؛ ولم يُحِر جوابًا.

هذا هو المعتقد الصحيح الذي قامت عليه الأدلة، ولهذا، تواتر السلف على تقريره في مصنفاتهم العقدية، وأفرده بعضهم بالتأليف؛ فألف ابن قدامة رحمه الله كتابًا في «العلو»، وألف الذهبي كتابه: «العلو للعلي الغفار»، جمعوا فيه النصوص المتكاثرة عن السلف.

قوله: (**الكبير**): من له الكِبَرُ المطلق سبحانه، في ذاته وصفاته وأفعاله، المنزه عن الصغر. قال تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٩]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (السماوات السبع، والأرضون السبع وما فيهن في يد الرحمٰن كخردلة في يد أحدكم)(٢).



(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٠) (٤/ ٤٤، ٦١)، العلو (٢٥٩).
(٢) الإبانة الكبرى (٢٣٧).

طريقة أهل السُّنَّة والجماعة في باب الأسماء والصفات

أولًا: **طريقتهم في الإثبات**: الواجب فيه **أمران**:

١ ـ إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه، أو أثبته له نبيّه ﷺ في سُنَّته.

٢ ـ الحذر من أمور أربعة، وهي: التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل. **وبيانها**:

التحريف: لغة: التغيير. يقال: حرف فلان الكتاب؛ يعني: غَيَّرَ فيه، وزاد أو نقص.

اصطلاحًا: تغيير النص لفظًا أو معنى. فالتحريف **نوعان**:

١ ـ **التحريف اللفظي: وله ثلاث صور**:

ـ ما يكون بزيادة حرف: كقولهم في آية: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]: استولى!

ـ ما يكون بزيادة كلمة: كقولهم في آية: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]: وجاء أمر ربك! أو قولهم في حديث: «يَنْزِلُ رَبُّنَا»[1]: ينزل أمر ربنا.

ـ وتارة بتغيير الشكل: كصنيعهم في آية: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]؛ بنصب لفظ الجلالة، ليكون الله مُكلَّما لا متكلِّمًا. نقل ابن كثير عن الحافظ ابن مردويه بسنده، قال: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي بَكْرِ بْنِ عيَّاش، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقْرَأُ: «وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا قَرَأَ

(١) أخرجه البخاري رقم (١١٤٥)، ومسلم رقم (٧٥٨).

هَذَا إِلَّا كَافِرٌ، قرأتُ عَلَى الْأَعْمَشِ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ عَلَى يَحْيَى بْنِ وَثَّابٍ، وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ وثَّاب عَلَى أَبِي عَبْدِ الرَّحْمٰنِ السَّلْمِيّ، وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمٰنِ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَرَأَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ١٦٤﴾. وَإِنَّمَا اشْتَدَّ غَضَبُ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ رَحِمَهُ اللهُ، عَلَى مَن قَرَأَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ حَرّف لَفْظَ الْقُرْآنِ وَمَعْنَاهُ، وَكَانَ هَذَا مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ اللهَ كلَّم مُوسَى عليه السلام، أَوْ يُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا رُوِّينَاهُ عَنْ بَعْضِ الْمُعْتَزِلَةِ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى بَعْضِ الْمَشَايِخِ: «وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا»، فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ اللَّخْنَاء، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الْأَعْرَافِ: ١٤٣]؛ يَعْنِي: أَنَّ هَذَا لَا يَحْتَمِلُ التَّحْرِيفَ وَلَا التَّأْوِيلَ)[١].

٢ ـ **التحريف المعنوي**: وهو أن يصرف النص عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي مزعوم؛ كأن يقول: المراد بالاستواء: الاستيلاء، أو الهيمنة، أو السيطرة، أو غير ذلك من المعاني المبتكرة بلا دليل أو أثارة من علم.

التعطيل: **لغة**: الخلو والتفريغ، قال الله ﷻ: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ [الحج: ٤٥]؛ أي: لا ماء فيها. وتقول العرب: امرأة مِعْطَالٌ؛ أي: خَلِيَّةٌ من الزينة والحُلِيّ؛ لأنها استغنت بجمالها عنه. ويقول الشاعر:

لا تنكري عَطَلَ الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

أي: لا تنكري خلو الرجل الكريم من المال؛ فإن المطر لا يستقر في أعالي الجبال؛ بل يهبط منها إلى بطون الأودية، فكذلك الرجل الكريم إذا وقع في يده المال قال به هاءَ وهاءَ وفرَّقه.

واصطلاحًا: إنكار، أو جحد، أو نفي أسماء الله وصفاته؛ كلها أو بعضها. فالتعطيل **نوعان**:

١ ـ **التعطيل الكلي**: وهو إنكار أسماء الله وصفاته كلها. وأهل التعطيل الكلي مراتب:

ـ **غلاة الغلاة**: وهم القرامطة القائلون بنفي النقيضين! فلا يصفونه بموت

(١) تفسير القرآن العظيم، ت. سلامة (٢/ ٤٧٤).

ولا حياة، ولا علم ولا جهل، ولا قدرة ولا عجز؛ زعمًا منهم أن وصفه بالإثبات تشبيه له بالموجودات، ووصفه بالنفي تشبيه له بالمعدومات! وقولهم ظاهر التهافت والبطلان، ويلزم منه ما هو أشد مما فرُّوا منه، وهو تشبيهه بالممتنعات.

ـ **الغلاة**: وهم الجهمية المنسوبون إلى الجهم بن صفوان السمرقندي؛ يقولون: إن الله تعالى هو الوجود المطلق، بشرط الإطلاق؛ فلا يثبتون له الأسماء والصفات، زعمًا منهم أن ذلك يقتضي تشبيهه بالمخلوقات ذات الأسماء والصفات! فيقولون: ليس بسميع، ولا بصير، ولا عليم، ولا حكيم، ولا قدير، وليس له سمع ولا بصر ولا علم، ولا حكمة، ولا قدرة. ويزعمون أن إثبات ذلك يلزم منه تعدد القدماء، وهي دعوى باطلة مجرد تصورها يكفي في إبطالها؛ فإن الشخص الواحد قد يحمل عدة أسماء، ويتصف بعدة صفات، دون تكثر وتعدد.

ـ **المعتزلة**: القائلون بإثبات الأسماء دون الصفات؛ فيقولون: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، حكيم بلا حكمة، قدير بلا قدرة! فجعلوا أسماء الله الحسنى بمنزلة الأعلام المحضة المترادفة، وليس تحتها أوصاف. والحق أنها أعلام وأوصاف؛ أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار استقلال كل اسم منها بمعنى يميزه عن غيره.

٢ ـ **التعطيل الجزئي**: وهو نفي بعض الصفات دون بعض؛ كتعطيل «الصفاتية» من الكُلَّابِيّة والأشاعرة والمَاتُريدِيّة، وأمثالهم. فالأصل عندهم الإثبات، لكن وقع منهم تحريف جزئي، في الصفات الخبرية والفعلية، بسبب شبهات المعتزلة التي لم يحسنوا كشفها. فالأشاعرة، مثلًا، لا يثبتون من الصفات إلا سبعًا، ويؤولون الباقي؛ يثبتون الصفات المعنوية، وهي: الحياة، والسمع، والبصر، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، ويؤولون باقي الصفات الفعلية؛ كالرضا، والسخط، والمجيء، والغضب، والصفات الخبرية؛ كالوجه واليدين والعينين. ويفرقون بين المتماثلات؛ فالذي أثبت لنفسه السمع والبصر والعلم والإرادة والكلام، هو الذي أثبت لنفسه الرضا

والسخط والمجيء والإتيان، والوجه واليدين والعينين، سواء بسواء.

والمقصود بالصفات الخبرية: ما يقابلها عند المخلوقين أبعاض وأجزاء، وسبيل إثباتها الخبر فقط، ولا مدخل للعقل فيها؛ مثل صفة الوجه، واليدين، والعينين. وقد كان أوائل الصفاتية من الكلابية والأشاعرة والماتريدية، يثبتونها، لكن متأخريهم أوّلوها.

والمقصود بالصفات الفعلية: المتعلقة بفعل الله ومشيئته؛ كمجيئه، واستوائه، ونزوله، ورضاه، وغضبه، ونحو ذلك. والصفاتية يؤولونها بناءً على شبهتهم في نفي حلول الحوادث! وهي شبهة مدفوعة بصراحة المنقول، وصراحة المعقول؛ فإن جنس الفعل قديم، كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج: ١٦]، وأما آحاده وأفراده فتتجدد، وليس في ذلك حدوثًا مذمومًا؛ كما أن جنس كلامه قديم، وآحاده وأفراده حادثة؛ قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥].

وأهل السُّنَّة والجماعة يسوقون القول في الصفات مساقًا واحدًا، ولا يفرقون بين صفات ذاتية، وفعلية، وخبرية، من حيث الإثبات، ويثبتون لله ﷻ جميع ما أثبت لنفسه، ولا يفرقون بين المتماثلات. فقانونهم مُطَّرِد، وطريقتهم ثابتة، لا اختلال فيها ولا تفاوت؛ بخلاف أهل الأهواء والبدع؛ فميزانهم مضطرب، وأقوالهم متناقضة. والتناقض معيار الفساد.

الفرق بين التحريف والتعطيل: كل محرِّف معطل، وليس كل معطل محرف؛ لأن المحرف عطل أولًا، وحرَّف ثانيًا؛ عطل المعنى الصحيح، واستبدله بمعنى من تلقاء نفسه. ولا يلزم أن يكون المعطل محرفًا؛ فقد يعطل الصفة، ولا يثبتها على حقيقتها، كما أنه لا يخترع لها معنى بديلًا؛ بل يمسك؛ كأهل التفويض، الذين يسميهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم: «أهل التجهيل».

وهذا المذهب من شر المذاهب. وكثيرٌ من المتكلمين ينسبونه إلى السلف، ويظنون أنه طريقة السلف! وبينه وبين طريقة السلف بُعد المشرقين.

وحقيقته: إثبات لفظ الصفة دون معناها، لا أنه لا معنى لها، ولكن لها معنى مجهول، لا سبيل للعلم به! بمنزلة الأعجمي الذي يقرأ القرآن، ولا يعرف معانيه، ولا ينتفع بتدبره. ومؤداه: حمل الناس في أشرف أبواب الدين، الذي هو باب العلم بالله وأسمائه وصفاته، على الجهل، وإغلاق باب العقل والنقل. ولَمَّا حكى شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مقالة المفوضة، قال: (فتبين بذلك أن مقالة أهل التفويض الذين يزعمون الانتساب إلى السُّنَّة واتباع السلف، من شر مقالات أهل البدع والإلحاد)[١].

وقد خاطب الله عباده بكتابه، وأمرهم بتدبره؛ كما قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، ولم يستثنِ شيئًا من التدبر؛ بل إن أولى الأمور بالتدبر: هو ما أخبر الله تعالى به عن نفسه. كما أنه ندبهم إلى تعقله، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣]، ولم يستثنِ شيئًا. فكل صفة من صفات الله يتعلق بها **ثلاثة أشياء**:

١ ـ لفظ يدل عليها، جاء في الكتاب أو السُّنَّة.

٢ ـ معنى مطلق معهود في الأذهان، دلت عليه لغة العرب.

٣ ـ كيفية هي عليه في الواقع.

فالواجب إثبات اللفظ والمعنى، وتفويض الكيفية. فلا بد من التميز بين المعاني والكيفيات.

مثال: اسم الله (السميع)، فنثبت هذا الاسم المشتق من مادة «سَمِعَ»، ونثبت المعنى الذي دل عليه، وهو إدراك الأصوات، ونفوض كيفية السمع إليه سبحانه. فعن عائشة أنها قالت: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى عليَّ كلامها. فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).

يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١] الآية)[١].

مثال آخر: اسم الله (البصير)؛ فنثبت هذا الاسم المشتق من مادة «بَصَرَ»، ونثبت المعنى الذي دل عليه، وهو إدراك المرئيات، ونفوض كيفية الإبصار إليه سبحانه.

مثال ثالث: صفة «الاستواء»؛ فنثبت الصفة المشتقة من مادة «استوى»، ونثبت المعنى الذي دل عليه، وهو: علا واستقر، ونفوض كيفية الاستواء إليه سبحانه؛ كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ، لمن سأله عن كيفية الاستواء: (الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالِاسْتِوَاءُ مِنْهُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ)[٢].

التمثيل: **لغة**: إثبات مماثل للشيء، وهو التطابق من جميع الوجوه؛ كتماثل نسخ الكتاب، والتشبيه: التطابق من معظم الوجوه. **واصطلاحًا**: إثبات مماثلٍ لله تعالى في ذاته، أو صفاته، أو أفعاله.

والتمثيل ممتنع عقلًا، محرم شرعًا؛ ممتنع عقلًا لاستحالة أن يكون الخالق الكامل من جميع الوجوه كالمخلوق الناقص من جميع الوجوه. ومحرم شرعًا لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]. والتمثيل **نوعان**:

أحدهما: تمثيل الخالق بالمخلوق: كأن يقول قائل: وجه الله كوجه المخلوق، يد الله كيد المخلوق، سمع الله كسمع المخلوق؛ تعالى الله عن ذلك. فجعل المثل الأعلى كالمثل الأدنى. وأول من عُرف بالتشبيه في هذه الأمة قدماء الرافضة؛ كهشام بن الحكم الرافضي، وهشام بن سالم الجواليقي، وداود الجَوَارِبِي. ولهم مقالات تشمئز منها النفوس، وتقشعر لها الأبدان.

(١) أخرجه النسائي رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه رقم (١٨٨)، وأحمد رقم (٢٤١٩٥)، وأخرجه البخاري معلقًا في باب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾، وصححه الألباني.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٣/ ٤٤١).

الثاني: تمثيل المخلوق بالخالق: في الحقوق أو الأفعال أو الصفات؛ فيصف المخلوق بما يختص به الخالق:

- في الحقوق: كاعتقاد المشركين أن لآلهتهم حق العبادة.
- في الأفعال: كاعتقاد المجوس بخالق غير الله.
- في الصفات: كالغلو في وصف بعض المخلوقين. وهذا يقع من غلاة المَدَّاحِينَ من الشعراء وأمثالهم. كقول ابن هانئ الأندلسي يخاطب أحد الحكام العُبَيْدِيِّين:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

وقول آخر:

فكن كما شئت يا من لا شبيه له ... وكيف شئت فما خلق يدانيكا

وهذا الغلو لا يجوز حتى ولو كان في حق نبيّنا محمد ﷺ؛ فقد قال ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(١)، لكن ما حذر منه وقع! حتى قال أحدهم في مدح النبي ﷺ:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
فإن من جودك الدنيا وضُرَّتَهَا ... ومن علومك علم اللوح والقلم
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم

وهذا إطراء وغلو فاحش! فإن اللياذ، والنجاة يوم المعاد هذا لا ينبغي إلا لله، وقد صرف ذلك للنبي ﷺ! وجعل الدنيا والآخرة بعض جوده! وجعل علم اللوح والقلم بعض علومه! فماذا أبقى لله؟ فالحذر الحذر، فهذا من تشبيه المخلوق بالخالق.

التكييف: **لغةً**: حكاية كيفية الصفة. **واصطلاحًا**: حكاية كيفية صفات الله، وتعيينها. وهو ممتنع عقلًا محرم شرعًا؛ لما تقدم.

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٨٢٠)، ومسلم رقم (١٦٩١).

۞ الفرق بين التمثيل والتكييف:

الأول: أن التمثيل يتعلق بالنوع والقدر والصفة. والتكييف يتعلق بالصفة فقط. فقولنا: هذه النسخة من الكتاب مثل هذه النسخة، يتناول جميع خصائصهما؛ من مادة، ووزن، ولون، وغيره، أما التكييف فيتعلق بالصفة فقط؛ كما لو قال قائل: كيفية إقلاع الطائرة ككيفية طيران الطائر الفلاني؛ لاتفاقهما في الصفة، وهذا من لحم وريش، وهذا من حديد وفولاذ. وبهذا الاعتبار: فالتمثيل أعم من التكييف، فكل مكيف ممثل ولا عكس.

الثاني: أن التمثيل لا بد أن يكون مقيدًا بمماثل معين، وأما التكييف فقد يكون مقيدًا، وقد يكون مطلقًا. فلو حكى كيفية إقلاع الطائرة بسيرها على مُدَرَّجِ المطار، ثم زيادة سرعتها، وميل أجنحتها، وارتفاعها تدريجيًّا، حتى يحملها الهواء، فقد حكى كيفية ذهنية مطلقة، لا تتعلق بمعين، وربما قرن كيفية طيرانها بمعين في الأذهان، كما تقدم. فالتكييف ـ بهذا الاعتبار ـ أعم من التمثيل، فكل ممثل مكيف ولا عكس.

وقد روى اللَّالكَائِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾، كَيْفَ اسْتَوَى؟ قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ مَالِكًا وَجَدَ مِنْ شَيْءٍ كَمَوْجِدَتِهِ مِنْ مَقَالَتِهِ، وَعَلَاهُ الرُّحَضَاءُ؛ يَعْنِي: الْعَرَقُ، قَالَ: وَأَطْرَقَ الْقَوْمُ، وَجَعَلُوا يَنْتَظِرُونَ مَا يَأْتِي مِنْهُ فِيهِ، قَالَ: فَسُرِّيَ عَنْ مَالِكٍ، فَقَالَ: الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالِاسْتِوَاءُ مِنْهُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ. فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ ضَالًّا. وَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ)[(١)].

فهذه الجمل الأربعة، متضمنة لمنهج أهل السُّنَّة والجماعة في باب الصفات:

(الكيف غير معقول)؛ يعني: كيفية استواء الله على عرشه غير متعقلة، لا

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٣/ ٤٤١)، رقم (٦٦٤).

يمكن لعقولنا أن تتصورها. وليس معنى ذلك أنه ليس له كيفية، فإن ذلك عين التعطيل؛ بل لها كيفية يعلمها سبحانه، ولا نحيط بها علمًا. فرق بين نفي الكيفية ونفي التكييف. فالواجب نفي التكييف.

(الاستواء منه غير مجهول)؛ أي: غير مجهول المعنى في لغة العرب، فالعرب تعرف في لغتها معنى الاستواء. وقد جاء في رواية أخرى أنه قال: الاستواء معلوم؛ أي: معلوم المعنى في لغة العرب؛ لأن الذي قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في ستة مواضع، هو الذي قال: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]؛ أي: على الفلك والأنعام. والاستواء على الفلك والأنعام يعني: العلو عليها. فمعنى الاستواء معلوم، وهو العلو.

(والإيمان به واجب)؛ لأن الله أخبر عنه في كتابه في سبعة مواضع؛ ستة على نسق واحد: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، والسابع: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وأخبر عنه نبيّه ﷺ.

(والسؤال عنه بدعة)؛ أي: السؤال عن الكيفية بدعة؛ لأن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يسألون النبي ﷺ عن كيفية صفات الله ﷻ؛ بل إذا بلغهم شيء عن صفة الرب سبحانه، سبق إلى قلوبهم «المثل الأعلى» الذي يختص بالله ﷻ، ولم يتبادر إلى أذهانهم لَوْثَةُ التشبيه والتمثيل، ولم يخطر ببالهم لوازم بشرية؛ لأنهم يعلمون أن الصفة إذا أضيفت إلى الله اختصت به، والله ليس كمثله شيء، فصفته ليس كمثلها شيء؛ فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات. فكانوا يتلقون هذه الأخبار معتقدين تنزيه الله ﷻ.

فطريقة أهل السُّنَّة والجماعة أنهم يثبتون لله إثباتًا بلا تمثيل، وينزهون الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل؛ فلا يبالغون في الإثبات فيقعون في التمثيل، ولا يبالغون في النفي والتنزيه فيقعون في التعطيل؛ بل هم وسط بين طرفين، وعدل بين عوجين. وقد دلَّ على هذه الوسطية قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: رد على أهل التمثيل والتكييف، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾: رد على أهل التحريف والتعطيل.

فالممثل يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا[1]؛ الممثل يعبد صنمًا؛ لأنه اخترع صورة ذهنية لمعبوده فكان كمن يعبد صنمًا. والمعطل ينفي عن الله كل وصف ثبوتي، فكأنه يعبد عدمًا. والمؤمن الموحد يعبد الله الحي الذي لا يموت، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⑪﴾ [الشورى: ١١].

قال بعض السلف مخاطبًا المعطلة: ما مثلكم إلا كمثل رجل قال: في بيتنا نخلة، فقيل له: أَلَهَا جذع؟ قال: لا، قيل: أَلَهَا جذور؟ قال: لا، قيل: أَلَهَا سعف؟ قال: لا، قيل: أتحمل الثمر؟ قال: لا، قيل: فما في بيتكم نخلة! فكذلك هؤلاء المعطلة النفاة الذين يقولون: ليس بسميع ولا بصير ولا عليم ولا حكيم ولا يجيء ولا يسخط ولا يرضى، ولا ولا...، لا يصفون الله إلا بالسُّلُوب والنفي، مؤدى كلامهم إلى العدم، كما قال بعض السلف: إنما يحاولون أن ليس فوق السماء إلٰه.

ثانيًا: طريقتهم في النفي: الواجب فيه **أمران**:

١ ـ نفي ما نفاه الله تعالى عن نفسه، أو نفاه عنه نبيّه ﷺ. والله ﷻ لا ينفي عن نفسه إلا ما ينافي الكمال؛ فهو ﷻ مُنَزَّهٌ عن النقص والعيب ومُمَاثَلَةِ المخلوقين. فكلُّ صفة منفية عن الله فهي نقص لا كمال فيها بوجه من الوجوه، كما أن كل صفة ثبوتية فهي كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

ومن أمثلة النفي في القرآن: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③﴾ [الإخلاص: ٣]؛ نفى الله عن نفسه الولادة من الجهتين: من جهة الأعلى والأدنى. وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ④﴾ [الإخلاص: ٤]؛ نفى عن نفسه الكفء.

ومن أمثلة النفي في السُّنَّة: قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**»[2]؛ فالواجب نفي ما نفاه الله ورسوله.

٢ ـ إثبات كمال ضد الصفة المنفية: فإن النفي المجرد لا يدل على كمال حتى يقترن به إثبات ضده؛ فنفي الجهل عن الله لا بد أن يصحبه إثبات

(١) درء تعارض العقل والنقل (٦/٣٤٨). (٢) أخرجه مسلم رقم (١٧٩).

كمال علمه، ونفي العجز عن الله لا بد أن يقترن به إثبات كمال قدرته، ونفي الضعف عن الله يستوجب إثبات كمال قوته، ونفي السِّنَة والنوم عن الله يستلزم إثبات كمال حياته وقيوميته.

وسبب ذلك أن النفي المجرد قد يكون لأحد **سببين**:

- عدم القابلية للاتصاف بالصفة؛ كما لو قلت: الجدار لا يظلم؛ لأن الظلم ليس من خصائصه، فَنَفْيُكَ نفيٌ لأمر غير وارد أصلًا.

- العجز عن الاتصاف بتلك الصفة، ومثلوا له بقول شاعر يهجو قبيلة:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

فربما ظن ظان أنه يمدحهم، والواقع أنه يهجوهم؛ يريد أنه بلغ بهم الضعف والخَوَر والهوان حد العجز عن الظلم والغدر. وكقول آخر، يهجو قومه الذين خذلوه:

فإن قومي وإن كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

مراده: أن قومه بلغ بهم الضعف والهوان، درجة العجز عن إيصال الشر لغيرهم؛ لا لكونهم أحجموا عن ذلك مع القدرة.

وبناءً عليه؛ فإذا قرأت قول الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]؛ فالواجب عليك أمران: نفي الظلم عن الله، وإثبات كمال عدله.

وإذا قرأت قول الله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: ٣٨]؛ فالواجب عليك أمران: نفي التعب والإعياء عن الله، وإثبات كمال قدرته وقوته.

وإذا قرأت قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١]؛ فالواجب عليك أمران: نفي الجهل عن الله، وإثبات كمال علمه.

وطريقة القرآن في صفة الرب ﷻ:

ـ **الإثبات المفصل**: كقول الله ﷿: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].

ـ **النفي المجمل**: كقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٤٢]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

أما طريقة المتكلمين: فعكس طريقة القرآن؛ إثبات مجمل، ونفي مفصل! فيقول قائلهم: ليس بكذا ولا كذا ولا كذا، ولا يصفه بالصفات الثبوتية إلا على سبيل الإجمال غالبًا، وهذا من شؤم الإعراض عن طريقة القرآن.

ثالثًا: طريقتهم في ما لم يرد فيه نفي ولا إثبات: الواجب فيه **أمران**:

١ ـ التوقف في اللفظ: لأنه لم يرد في الكتاب ولا في السُّنَّة؛ لا بنفي ولا بإثبات؛ فلا يحل أن نثبته ولا أن ننفيه من تلقاء أنفسنا؛ لأن أسماء الله وصفاته تَوْقِيفِيَّة؛ نقف فيها عند موارد النصوص؛ فإن من أعظم الجُرْم القول على الله بغير علم؛ قال ربنا ﷿: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال الله ﷿: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦].

وهذا النوع الثالث يُكْثِر منه المتكلمون؛ يأتون بألفاظ لم ترد في الكتاب ولا في السُّنَّة؛ لا بنفي ولا بإثبات، فينفونها بلا أَثَارَةٍ من علم! مثل لفظ: الحيز، والجهة، والجسم، والحد؛ ليتوصلوا بنفيها إلى نفي ما أثبته الله ورسوله. فالواجب فيها **أمران**:

١ ـ التوقف في اللفظ؛ فلا نستعمل هذا اللفظ في صفة الرب ﷿؛ لا بنفي ولا إثبات.

٢ ـ الاستفصال عن المعنى؛ فإن ذكر معنًى صحيحًا قبلناه، وإن ذكر معنًى باطلًا رددناه.

مثال ذلك: لفظ (الجسم): فما بين دَفَّتَي المصحف ذكر «الجسم» لا بنفي ولا إثبات، ولا في دواوين السُّنَّة لفظ «الجسم» لا بنفي ولا إثبات؛ فالواجب أولًا التوقف فيه نفيًا وإثباتًا. ثم نستفصل عن مراد قائله؛ فإن أراد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له ذات لا تشبه الذوات، تقوم بها صفات؛ كالسمع والبصر، والعينين، واليدين، والوجه، فهذا معنى صحيح دلت عليه النصوص، يجب إثباته.

وإن أراد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مركب من أجزاء وأبعاض يحتاج بعضها إلى بعض كاحتياج قلب الآدمي إلى رئتيه، ورئتيه إلى كليتيه، وهكذا، فهذا معنى فاسد ينزه الله عنه.

مثال آخر: لفظ «الجهة»: لا نجد في ناطق الكتاب، ولا في صحيح السُّنَّة لفظ «الجهة»، لا بنفي ولا إثبات. فهي لفظة محدثة لا يحل التعبير بها، وإضافتها إلى الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفيًا وإثباتًا. وأما مقام الاستفصال؛ فإن أراد أن الله في جهة السفل فهو معنى باطل، ينزه الله عَزَّ وَجَلَّ عنه، فإنه العلي الأعلى. وإن أراد أنه في السماء لكن تحيط به سماواته، فهذا أيضًا معنى باطل؛ فالله أكبر وأعظم وأجل من أن يحيط به شيء من مخلوقاته، وإن أراد أن الله تعالى في جهة العلو، فوق سماواته، بائن من خلقه، مستوٍ على عرشه، فهذا معنى صحيح دلت عليه النصوص، لكن لا يعَبِّر عنه بلفظ الجهة، إلا مقيدًا بالعلو، فيقال: في جهة العلو.

وهكذا يقال في لفظ الحيز والحد، وما شابههما من الألفاظ التي أحدثها المتكلمون ليتوصلوا بها إلى إنكار الصفات الثابتة.

وبهذه الطريقة الشرعية، يزول كل إشكال؛ فإن الصفات لا تخلو من هذه الأقسام؛ إمَّا أن تكون صفة مثبتة، أو تكون صفة منفية، أو تكون صفة لم ترد لا بنفي ولا إثبات.



صفة العلو والفوقية

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(وَأنَّه فوقَ عَرشه المجيد بذاته، وهو في كلِّ مَكان بعِلمه. خَلَقَ الإنسانَ، ويَعلمُ ما تُوَسْوِسُ به نفسُه، وهو أَقرَبُ إليهِ مِن حَبْلِ الوَرِيدِ، ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]).

الشرح

قوله: (**وأنه فوق عرشه**): العرش مخلوق؛ بل هو أكبر المخلوقات وأعظمها وأعلاها، وهو سقف العالم، وله قوائم، تحمله الملائكة، كما أخبر ربنا ﷻ: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ۝١٧﴾ [الحاقة: ١٧]، وأخبر نبيّه ﷺ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ؛ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ**»(١).

قوله: (**المجيد**): وصف للعرش. ولو أراد وصف الذات لقال: (وأنه المجيد فوق عرشه). وأما قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥﴾ [البروج: ١٥]؛ ففيها وجهان، قال ابن الجوزي: (قرأ حمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم «المجيدِ» بالخفض، وقرأ غيرهم بالرفع؛ فمن رفع «المجيدُ» جعله من صفات الله ﷻ، ومن كسر جعله من صفة العرش)(٢)، وقال ابن كثير: (فِيهِ قِرَاءَتَانِ: الرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلرَّبِّ ﷻ. وَالْجَرُّ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلْعَرْشِ،

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٧٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨٥٤).
(٢) زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٢٧).

وَكِلَاهُمَا مَعْنًى صَحِيحٌ)[(١)]. ومعنى المجيد: العظيم العالي؛ كما وصفه في موضع آخر بالكرم، فقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٦]؛ أي: حسن المنظر والشكل.

قوله: (بذاته): هذه لفظة مأثورة عن جمع من السلف. قال أبو نصر السجزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأئمتنا؛ كالثوري، ومالك، وابن عيينة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وابن المبارك، والفضيل، وأحمد، وإسحاق، متفقون على أن الله سبحانه بذاته فوق العرش، وأن علمه بكل مكان»[(٢)]، فهؤلاء تسعة أئمة كبار، نقل السجزي اتفاقهم على هذا اللفظ، وقد توفي في القرن الخامس سنة ٤٤٤هـ. وقد أحصى الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ستة عشر إمامًا من أئمة السلف عبروا بهذا اللفظ (بذاته)[(٣)].

قال الذهبي: (قَالَ الإِمَام أَبُو مُحَمَّد بن أبي زيد المغربي شيخ الْمَالِكِيَّة فِي أول رسَالَته الْمَشْهُورَة فِي مَذْهَب مَالك الإِمَام: (وَأَنه تَعَالَى فَوق عَرْشه الْمجِيد بِذَاتِهِ وَأَنه فِي كل مَكَان بِعِلْمِهِ). وَقد تقدم مثل هَذِه الْعبارَة عَن أَبِي جَعْفَرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَعُثْمَان بن سعيد الدَّارمِيّ، وَكَذَلِكَ أطلقها يحيى بن عمار واعظ سجستان فِي رسَالَته، والحافظ أَبُو نصر الوائلي السجْزِي فِي كتاب الْإِبَانَة لَهُ، فَإِنَّهُ قَالَ: وأئمتنا كالثوري وَمَالك والحمادين وَابْن عُيَيْنَة وَابْن الْمُبَارك والفضيل وَأحمد وَإِسْحَاق، متفقون على أَن الله فَوق الْعَرْش بِذَاتِهِ وَأَن علمه بِكُل مَكَان. وَكَذَلِكَ أطلقها ابْن عبد الْبر كَمَا سَيَأْتِي. وَكَذَا عبارَة شيخ الْإِسْلَام أبي إِسْمَاعِيل الْأَنْصَارِيّ، فَإِنَّهُ قَالَ: «وَفِي أَخْبَار شَتَّى أَن الله فِي السَّمَاء السَّابِعَة على الْعَرْش بِنَفسِهِ»، وَكَذَا قَالَ أَبُو الْحسن الكرجي الشَّافِعِي فِي تِلْكَ القصيدة:

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ت. سلامة (٨/ ٣٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٢)، العلو للعلي الغفار (١/ ٢٣٥). وقال في أول الكتاب ص (١٣): (فإننا على أصل صحيح، وعقد متين، من أن الله تقدس اسمه لا مثل له، وأن إيماننا بما ثبت من نعوته كإيماننا بذاته المقدسة؛ إذ الصفات تابعة للموصوف، فنعقل وجود الباري، ونميز ذاته المقدسة عن الأشباه، من غير أن نتعقل الماهية).

(٣) عقيدة السلف (٢٦ ـ ٢٨).

عـقـائـدهـم أَن الْإِلٰـه بِـذَاتِـهِ على عَرْشه مَعَ علمه بالغوائب

وعَلى هَذِه القصيدة مَكْتُوب بِخَط الْعَلامَة تَقِيّ الدّين بن الصّلاح: «هَذِه عقيدة أهل السُّنَّة وَأَصْحَاب الحَدِيث». وَكَذَا أطلق هَذِه اللَّفْظَة أَحْمد بن ثَابت الطرقي الْحَافِظ، وَالشَّيْخ عبد الْقَادِر الجيلي، والمفتي عبد الْعَزِيز القحيطي، وَطَائِفَة. وَالله تَعَالَى خَالق كل شَيْء بِذَاتِهِ، ومدبر الْخَلَائق بِذَاتِهِ، بِلَا معِين وَلَا مؤازر.

وَإِنَّمَا أَرَادَ ابْن أبي زيد وَغَيره: التَّفْرِقَة بَين كَونه تَعَالَى مَعنا، وَبَين كَونه تَعَالَى فَوق الْعَرْش. فَهُوَ كَمَا قَالَ؛ معنا بِالْعلمِ، وَأَنه على الْعَرْش كَمَا أعلمنَا حَيْثُ يَقُول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾. وَقد تلفظ بِالْكَلِمَةِ الْمَذْكُورَة جمَاعَة من الْعلمَاء كَمَا قدمْنَاهُ. وَبلا ريب أَن فضول الْكَلَام تَركه من حسن الْإِسْلَام.

وَكَانَ ابْن أبي زيد من الْعلمَاء العاملين بالمغرب وَكَانَ يلقب بـ «مَالك الصَّغِير»، وَكَانَ غَايَة فِي علم الْأُصُول... وَقد نقموا عَلَيْهِ فِي قَوْله: «بِذَاتِهِ»، فليته تَركهَا)[١].

وعبارة الذهبي الأخيرة، وجهها الشيخ ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، بقوله: (قلت: يعني: لكي لا ينقم الناس عليه؛ لا لأنه خطأ في نفسه، كيف وقد قاله من سبق ذكرهم من العلماء عند المؤلف، مع ملاحظة أنه لا فرق في الحقيقة بينه وبين قول المؤلف المتقدم آنفا: (والله تعالى خالق كل شيء بذاته)!)[٢].

وقد قرر الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، في تقديمه لمقدمة ابن أبي زيد، حقيقتين مهمتين، فقال: (**الحقيقة الرابعة:** أَن أَهل السُّنَّة والجماعة حين يكتبون في بيان أَمر التوحيد، وتقريره، ابتداءً؛ لتلقين المسلمين المعتقد الحق، ودفع تلقينهم عقائد المخالفين ـ فإِنهم في تآليفهم هذه يقتصرون على أَلفاظ نصوص الوحيين الشريفين؛ كما سَلَكَهُ شيخ الإِسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في «العقيدة الواسطية» وغيرها.

(١) العلو للعلي الغفار (ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦) (٢) مختصر العلو (٢٥٦).

وقد يأْتي بعضهم ببعض هذه الأَلفاظ مثل «بائن من خلقه»، «بذاته»، «غير مخلوق» لزيادة البيان؛ ولما يشاهده في عصره من ظهور المخالفين، وانتشار مذاهبهم، فهو تقرير وَرَدٌّ على تلكم التوجهات العقدية المرفوضة بمقياس الشرع المطهر، يوضحه ما بعده:

الحقيقة الخامسة: أَن وجود الأَقوال الشنيعة من المخالفين في حق الله ﷻ المُعْلَنَةِ في مذاهبهم الباطلة: التأْويل، التفويض، التعطيل... المخالفة لما نطق به الوحيان الشريفان في أُمور التوحيد والسُّنَّة، اضطرت علماء السلف الذين واجهوا هذه المذاهب والأَقاويل الباطلة بِالرَّدِّ والإِبطال ـ إِلى البيان بأَلفاظ تفسيرية محدودة، هي من دلالة أَلفاظ نصوص الصفات على حقائقها ومعانيها، لا تخرج عنها؛ لأن هؤلاء المخالفين لما تجرؤوا على الله فتفوهوا بالباطل، وجب على أَهل الإِسلام الحق الجهر بالحق، والرد على الباطل جهرة بنصوص الوحيين، لفظًا ومعنى ودلالة بِتَعَابِيرَ عن حقائقها ومعانيها الحَقَّة، لا تخرج عنها البتة، وانتشر ذلك بينهم دون أَن ينكره منهم أَحد.

وكان منها ـ مثلًا ـ أَلفاظ خمسة: «بذاته»، «بائن من خلقه»، «حقيقة»، «في كل مكان بعلمه»، «غير مخلوق». فأَهل السُّنَّة يُثبتون: استواء الله على عرشه المجيد، كما أَثبته الله لنفسه. فلما نفى المخالفون «استواء الله على عرشه المجيد»، وَلَجَأُوا إِلى أَضيق المسالك، فأَوَّلَهُ بَعْضٌ بالاستيلاء، وبعض بالتفويض، وبعض بالحلول، رد عليهم أَهل السُّنَّة بإِثبات استواء الله سبحانه على عرشه المجيد بذاته، وأَنه ـ سبحانه ـ بائن من خلقه، وأَنه استواء حقيقة.

فأَي خروج عن مقتضى النص في هذه الأَلفاظ؟! بل نقول لهم بالإِلزام: أَين لفظ «الاستيلاء» في نصوص الوحيين؟... وهذه الأَلفاظ انتشرت بين المسلمين: أَهل السُّنَّة والجماعة، ولم ينكرها منهم أَحد)[١]، ثم شرع في التفصيل.

---

(١) عقيدة السلف ـ مقدمة أبي زيد القيرواني لكتابه الرسالة (ص ٢٢ ـ ٢٤).

فلا بد لطالب العلم أن يفرق بين مقامين؛ التقرير، والرد. فالأصل أن تعرض العقيدة كما جاءت في القرآن العظيم، وكما نطق بها النبي ﷺ. ولكن حينما يدلس مبطل ليزوق باطله، فإن المقام يتطلب مزيدًا من البيان والتحقيق. وهي ألفاظ معدودة على الأصابع، يسوغ ذكرها في مقام الرد على الخصوم لدحض باطلهم ودفع الاشتباه الذي قد يُشَبِّهُون به على العامة، وأما في مقام التقرير ابتداءً فينبغي لزوم الألفاظ الشرعية، وعدم الاستعانة بألفاظ زائدة.

وأما استنكار الشراح المتأخرين، فلكونهم جروا على طريقة المتكلمين الأشاعرة في إنكار العلو.

قوله: (وهو في كل مكان بعلمه): هذا التعبير قد روي عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: (الله في السماء، وعلمه في كل مكان لا يخلو منه مكان)[١]، يعني: أحاط بكل شيء علمًا. فتبين أن قول بعض العامة: «ربنا في كل مكان»، خطأ فاحش؛ بل يقال: «علمه في مكان»، أما هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو فوق سماواته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه. خلافًا لمقالة حلولية الجهمية الذين شابهوا النصارى بعقيدة الحلول. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له العلو المطلق في ذاته كما له العلو المطلق في صفاته.

قوله: (خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه): قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، والوسوسة في اللغة هي: الصوت الخفي[٢]، كما قال الأعشى:

تَسْمَعُ لِلْحلْيِ وَسْوَاسًا إِذَا انْصَرَفَتْ   كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

يشبه صوت حلي محبوبته عند انصرافها، بصوت شجر معين من شجر البادية إذا مرت به الريح. فمن دقيق علم الله عَزَّوَجَلَّ: علمه بحديث النفس، ولحظات الأبصار، وخلجات الصدور؛ كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا

(١) التمهيد (٧/ ١٣٨)، العلو (٣٢٨).
(٢) لسان العرب: مادة (وسس) (٦/ ٢٥٤).

﴿تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩]. فصاحبك إلى جوارك لا يعلم ما يجول بخاطرك، ولا تعلم ما يجول بخاطره. لكن الله يعلم.

والوسوسة التي تقع في النفس لها **ثلاثة مصادر**:

١ ـ وسوسة شياطين الجن.

٢ ـ وسوسة شياطين الإنس.

قال الله ﷻ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [سورة الناس].

٣ ـ وسواس النفس؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ [ق: ١٦]؛ فالنفس توسوس بطبعها. وهذا النوع منه ما هو طبعي؛ كحديث النفس عن ماجريات الحياة، وأحيانًا يكون مرضًا، وهو ما يسمى «الوسواس القهري» فيحتاج إلى علاج. وربما ابتلي به بعض الصالحين في الاعتقاد، وفي الطهارة، وفي الصلاة وسائر العبادات، وفي أمور الحياة.

وعلى الإنسان أن يحرص على صحته النفسية، ويضبط تفكيره، وينأى عن الأوهام، فلا يذهب إلى ألوان من التفكير تؤذيه وتزعجه، وتقمعه وتمنعه من الخير.

قوله: (**وهو أقرب إليه من حبل الوريد**): قال تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧﴾ [ق: ١٦، ١٧]؛ فهذا القرب قرب بملائكته، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية(١) وتلميذه ابن القيم(٢) رحمهما الله، وحبل الوريد هو العرق الكبير الخارج من القلب لعله الذي يسمى «الأَوْرْطه».

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكُنَّا إذا

(١) مجموع الفتاوى (٥/١٢٨ ـ ١٢٩).
(٢) مدارج السالكين (٢/٢٩٠).

أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ، هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا، ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ**»(١).

قوله: (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها): قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]؛ هذه الأمثلة تدل على كمال علم الله المحيط بكل شيء. فحين تتهادى ورقة من شجرة في غابة من غابات العالم، وتقع على الأرض، يعلم الله ﷻ لحظة وقوعها، ومكان وقوعها، وكيفية وقوعها! وأنت لو حاولت أن ترصد سقوط ورق الشجرة التي في فناء بيتك، لاستدعى ذلك أن توقف نفسك على هذه الشجرة، مع المشقة البالغة، وقد يخفى عليك بعضها.

قوله: (ولا حبة في ظلمات الأرض): «ورقة» و«حبة» نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم. يرفع المرء حجرًا في البرية فيجد حبة! من أين أتت حتى استقرت في هذا الموضع؟ الله يعلمها.

قوله: (ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين): والأشياء إما رطبة وإما يابسة، فماذا بقي؟ وكل ذلك في اللوح المحفوظ.

وإنما ذكر المصنف علم الرب بالوسوسة، والورقة، والحبة، والرطب واليابس، ليبين أن علمه في كل مكان، وأنه لا منافاة بين فوقيته على عرشه وعلوه، وإحاطة علمه بكل شيء، فهو قريب في علوه، عليٌّ في دنوه.



(١) أخرجه البخاري رقم (٢٩٩٢)، ومسلم رقم (٢٧٠٤).

صفة الاستواء

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(على العَرشِ اسْتَوى، وعَلى المُلْكِ احْتَوى، وله الأسماء الحُسنى والصِّفاتُ العُلَى، لَم يَزَل بِجَميعِ صفاتِه وأسمائِه، تَعالى أن تكونَ صفاتُه مَخلوقَةً، وأسماؤُه مُحْدَثَةً.

كلَّم موسى بكلامِه الَّذي هو صفةُ ذاتِه، لا خَلْقٌ مِن خَلقِه، وَتَجلَّى للجَبَل فصار دَكًّا مِن جلالِه، وأنَّ القرآنَ كلامُ الله، ليس بمخلُوقٍ فيَبِيدُ، ولا صفة لمخلوقٍ فَيَنْفَدُ).

الشرح

قوله: (على العرش استوى): هذا إثبات لصفة من صفات الله الفعلية، وهي «الاستواء». وصفات الله **نوعان**:

١ ـ **الصفات الذاتية**: هي الصفات الملازمة لذاته سبحانه، التي لا تنفك عنه بحال من الأحوال؛ مثل: الحياة والسمع والبصر والعلم والقدرة.

٢ ـ **الصفات الفعلية**: وهي المتعلقة بفعله ومشيئته وحكمته، يفعلها متى شاء، كيف شاء، حسبما تقتضيه حكمته؛ مثل: الاستواء، والمجيء، والنزول إلى السماء الدنيا.

والفرق بين العلو والاستواء من **جهتين**:

ـ **الفرق الأول**: أن العلو صفة ذاتية والاستواء صفة فعلية. فالله تعالى متصف بالعلو دومًا لا يمكن أن يكون متصفًا بالسفل، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما الاستواء، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين خَلْقِ السماوات والأرض لم يكن مستويًا على العرش؛

لقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وثم تفيد الترتيب والتراخي.

ـ **الفرق الثاني:** أن العلو يثبت بالعقل والنقل، وأما الاستواء فلا يثبت إلا بالنقل فقط؛ فلو أدمن الإنسان التفكير لِيُثْبِتَ الاستواء لم يتوصل إلى ذلك بمحض العقل. فلولا أن الله أخبرنا أنه استوى على العرش، وإلا، لما تمكنا بمجرد عقولنا أن نثبت ذلك.

الاستواء في **اللغة** يعني: الكمال والانتهاء، ويختلف معناه بحسب تَعْدِيتِهِ؛ فقد ورد في القرآن الكريم على **ثلاثة وجوه**:

ـ **مطلقًا**: كقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]؛ يعني: كَمُلَ، ومنه قولنا: استوى الزرع؛ أي: اشتد، واستوى الطعام؛ أي: نضج.

ـ **معدًّى بـ «إلى»**: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]؛ يعني: قصد بإرادة تامة.

ـ **معدى بـ «على»**: كقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فمعناها حينئذ: علا واستقر. فمعنى استواء الله على عرشه: علوه واستقراره عليه علوًّا واستقرارًا يليق بجلاله.

وقد شَرِقَ أهل التحريف بهذا المعنى، وأنكروا صفة الاستواء لله ﷻ، وحرفوا الاستواء إلى الاستيلاء، بلا دليل من كتاب ولا من سُنَّة؛ فقد ورد ذكر الاستواء في القرآن العظيم في سبعة مواضع بلفظ واحد: (استوى)، ولم يأتِ ولا مرة واحدة بلفظ (استولى)، فلو كان مراد الله ﷻ بالاستواء الاستيلاء لقال ولو مرة واحدة: استولى، فدل على أنه أراد حقيقة الاستواء.

وليس في لغة العرب أن استوى بمعنى استولى، كما قال ذلك أئمة العربية؛ كالخليل بن أحمد الفراهيدي، وابن الأعرابي، وغيرهما.

كما أنهم خالفوا إجماع السلف؛ فلم يقل أحد من السلف أن استوى بمعنى استولى.

ثم إنه يلزم على تفسيرهم الاستواء بالاستيلاء لوازم باطلة لا محيد لكم عنها:

- فيلزم من ذلك أن الله ﷻ لم يكن مستوليًا على العرش ثم استولى عليه! لقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ وثم تفيد الترتيب والتراخي، وهذا قدح عظيم في الربوبية.

- ويلزم من ذلك عدم مزية العرش على باقي المخلوقات؛ لأن الله سبحانه مستولٍ على كل شيء، فلا وجه لتخصيص العرش بذلك.

- ويلزم من ذلك أن يكون الله قد استوى على الأرض والشجر والحجر وغير ذلك؛ لأنها مشمولة بمعنى الاستواء.

ومقالات أهل البدع دومًا يلزم عليها لوازم باطلة، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم.

قوله: (**وعلى الملك احتوى**): أي: أحاط بجميع المخلوقات. وفي عطفه على الاستواء رد على من فسر الاستواء بالاستيلاء والملك والهيمنة، فالعطف يقتضي المغايرة.

قوله: (**وله الأسماء الحسنى والصفات العلى**): الحسنى: على وزن فُعْلَى، صيغة مبالغة؛ أي: التي بلغت في الحسن غايته. العلى: جمع العليا، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]؛ أي: الوصف الأعلى. وقد تقدم بيان ذلك.

قوله: (**لم يزل بجميع صفاته وأسمائه، تعالى أن تكون صفاته مخلوقة، وأسماؤه محدثة**): الصفات تابعة للذات، وصفات ربنا ﷻ ليست محدثة ولا مخلوقة؛ بل لم يزل، ولا يزال متصفًا بها، لم يطرأ عليه وصف لم يكن متصفًا به. والصفة معنى يقوم بالموصوف. فأما صفاته الذاتية فملازمة له؛ كحياته، وعلمه، وإرادته، وقدرته. وأما صفاته الفعلية فقديمة النوع، حادثة الآحاد، يفعلها حسب ما تقتضيه مشيئته وحكمته، فإنه لم يزل فعالًا لما يريد؛ كاستوائه، ونزوله، ومجيئه، وغضبه، ورضاه.

والمضاف إلى الله ﷻ **نوعان**:

- إن كان قائمًا بنفسه فهو مخلوق، مثل: بيت الله، ناقة الله، عبد الله؛ فإضافتها إليه ليست إضافة صفة إلى موصوف، وإنما إضافة مخلوق إلى خالقه، وربما كانت إضافة تشريف، وربما كانت إضافة خلق.

- إن كان لا يُتَصَوَّرُ أن يكون قائمًا بنفسه، فهو صفة، مثل: علم الله، وقدرة الله، ووجه الله.

(صفة الكلام)

قوله: (كلَّم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته، لا خلق من خلقه):

الكلام صفة من صفات الله الثابتة بالكتاب، والسُّنَّة، والإجماع. قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم: ٥٢]، والمناداة صوت لمن بَعُدَ، والمناجاة صوت لمن قَرُبَ، وقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦]. والأدلة على إثبات الكلام كثيرة جدًّا.

فمعتقد أهل السُّنَّة والجماعة: أن الكلام صفة من صفات الله ﷻ، وأنه قديم النوع، حادث الآحاد، وأنه سبحانه يتكلم بما شاء كيف شاء إذا شاء، بكلام حقيقي؛ بحروف وأصوات، لا يشبه كلام المخلوقين.

فهو من حيث أصل الصفة، صفة ذاتية، ومن حيث آحادها وأفرادها المتجددة، صفة فعلية، فقد كلَّم الأبوين في الجنة، وتكلم بالتوراة والزبور، ثم تكلم بالإنجيل، ثم تكلم بالقرآن، ويتكلم سبحانه يوم القيامة فيقول: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: ١١٦]، فالله ﷻ لم يزل متكلمًا؛ كما أنه لم يزل فعالًا. وخلقه يكون بكلامه، كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل: ٤٠].

والدليل على أن الله ﷻ يتكلم متى شاء: قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فوقع التكليم بعد المجيء، وهذا يعلم بمقتضى اللغة.

وأما أهل الأهواء والبدع فأنكروا ذلك وقالوا: إنه لا يتكلم متى شاء! وزعموا أن كلام الله ﷻ هو المعنى القديم القائم في نفسه. والحق أن آحاد كلام الله ﷻ، تحدث، كما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ [الشعراء: ٥]؛ فالله تعالى يحدث كلامًا بعد كلام، وهذا الحدوث لا نقص فيه بأي وجه من الوجوه؛ لأن أصله قديم.

والآدمي يوصف بالكلام ولو كان صامتًا؛ بمعنى: أهلية الكلام، وملكة النطق، وإن كان لا يتكلم إلا حسب الحاجة والداعي، ولله المثل الأعلى، فربنا ﷻ متصف بصفة الكلام اتصافًا ذاتيًّا، أي: أنه سبحانه متكلم من حيث إن الكلام صفة من صفاته، ولكنه سبحانه يتكلم بحسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته، وما ينزل به أمره ووحيه.

والدليل على أنه حروف: أن الله ﷻ يقول: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ثم يعقبها جملة مَقُول القول، وهي مكونة من حروف.

والدليل على أنه يتكلم بصوت: حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ**»[1].

وقالت الجهمية والمعتزلة: كلام الله مخلوق، والقرآن مخلوق، وإضافة الكلام إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

وقالت الكلابية والأشاعرة والماتريدية: كلام الله هو المعنى القديم القائم بنفسه، والحروف والأصوات مخلوقة، فيجعلون كلام الله المعنى دون اللفظ، ويعتقدون أن النداء الذي سمعه الأبوان في الجنة: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٢]، صوت مخلوق، خلقه الله في جوف الجنة! والصوت الذي سمعه موسى عند الشجرة: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠]، صوت مخلوق، خلقه الله في الشجرة!

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤٨٣).

قالت الأشاعرة: الحروف والأصوات عبارة عن كلام الله، وقالت الكلابية: حكاية عن كلام الله، وليست جزء مسماه. ولهذا، قال حذاق الأشاعرة: لا فرق بيننا وبين المعتزلة في هذا الباب، فإن فحوى كلام الأشاعرة عند التحقيق أن الحروف والأصوات التي سمعها الأبوان، وسمعها جبريل، وسمعها موسى الكليم، ليست كلام الله؛ بل مخلوق يعبر عن كلام الله. فلا فرق بينهم وبين المعتزلة.

وفي الباب مقالات للملاحدة، أشد بعدًا من مقالات أهل القبلة، **منها**:

١ ـ مقالة الاتحادية، أصحاب وحدة الوجود، يقولون: كل كلام مسموع في الكون كلام الله! قال قائلهم:

وكل كلام في الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه

فأزيز المحركات، وأصوات البهائم والطيور والحيوانات، وكل مسموع عندهم كلام الله ﷻ؛ لأنهم يعتقدون عقيدة كفرية، وهي: عقيدة وحدة الوجود، والحلول، والاتحاد العام، حتى يذكر عن أحد شيوخهم أنه سمع غرابًا ينعق على جدار المسجد، فقال: لبيك! لبيك! ثم خر مغشيًّا عليه؛ خُيِّلَ إليه، وتهيأ له أن هذا صوت الباري سبحانه وتعالى عما يقولون.

٢ ـ مقالة الفلاسفة: يزعمون أن كلام الله ﷻ فيض من العقل الفعال على بعض النفوس الزاكية يوجب لها تهيؤات وتخيلات تَقْوَى حتى تصبح أصواتًا مسموعة.

قوله: (وتجلى للجبل فصار دكًّا من جلاله): يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. أراد المصنف بيان عظمة الرب سبحانه.



الإيمان بالقرآن

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد).

الشرح

يعتقد أهل السُّنَّة والجماعة: أن القرآن كلام الله، مُنَزَّلٌ غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، تكلم الله به حقيقة، فأوحاه إلى جبريل فنزل به على قلب محمد ﷺ.

والدليل على أنه كلام الله: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فإذا استجار بنا مشرك فالواجب علينا أن نسمعه كلام الله، وذلك أن نأمر قارئًا يقرأ عليه القرآن. فذلك المسموع كلام الله حقًّا.

والدليل على أنه منزل غير مخلوق: قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: ١]، والآيات الدالة على إثبات النزول كثيرة جدًّا. وهو غير مخلوق؛ لأن الكلام صفته، ولا يمكن أن تكون صفة من صفات الله مخلوقة، فالصفات تابعة للذات.

والدليل على أنه منه بدأ: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، و(من) في الآيات للابتداء، أي: منه بَدَا؛ يعني: صدر، أو منه بدأ؛ يعني: تكلم الله به ابتداءً.

والدليل على أنه إليه يعود: ما ورد في بعض الآثار عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية**»[١]، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يسرى على كتاب الله فيرفع إلى السماء فلا يبقى في الأرض منه آية**»[٢]. يُسْرَى بالقرآن ليلًا من المصاحف ومن الصدور، فلا يبقى شيء منه أبدًا، تكرمةً له، وذلك، والله أعلم، حين يُهْجَر العمل به، فيصبح الناس وقد ابيضت صفحات المصاحف، ونُزِعَ من صدورهم ما حفظوه، حينما يتخذونه ظهريًّا، ولا يعملون به، ولا يتدبرونه، ولا يتلونه، ولا يُحَكِّمُونَه.

والدليل على أن الله تكلم بالقرآن حقيقة: إضافته إليه؛ كما تقدم في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ١٥].

والدليل على أنه أوحاه إلى جبريل فنزل به على قلب محمد ﷺ: قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥].

فالقرآن كلام الله، مهما تصرف بتلاوة أو كتابة، أو حفظ، أو غير ذلك؛ فالتلاوة فعل العبد، والمَتْلُو كلام الرب، الكتابة فعل العبد، والمكتوب كلام الرب، والمحفوظ كلام الرب، والحفظ فعل العبد، وهكذا، فإن الكلام إنما ينسب إلى من قاله مُبْتَدِئًا، لا إلى من قاله مبلغًا ومؤديًا. فلو صعد المنبر إنسان وقال: (أيها الناس من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج) إلى آخر هذه الخطبة المشهورة، فقال قائل: كلام من هذا؟ قيل: هذا كلام قس بن ساعدة الإيادي، ولم ينسب إلى من اختطب به؛ لأن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مُبْتَدِئًا لا إلى من قاله مؤديًا ومبلغًا. ولو أنشد إنسان:

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٤٠٤٩)، والحاكم في المستدرك رقم (٨٤٦٠) وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، قال ابن حجر: سنده قوي (الفتح ١٣/١٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٨٦).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٦٨٥٣)، والحاكم رقم (٨٥٤٤).

قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُول فَحوْمَلِ

فقال قائل: شعر من هذا؟ لقيل: شعر امرئ القيس، ولم ينسب لمن أنشده؛ لأن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مُبْتَدِئًا لا إلى من قاله مؤديًا ومبلغًا.

وقد ضل في هذا المقام، سوى من سبق، طائفتان من أهل الأهواء:

إحداهما: **اللفظية**: القائلون: (لفظي بالقرآن مخلوق). قال عبد الله بن أحمد: (سَمِعْتُ أَبِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ فَهُوَ جَهْمِيٌّ»، سَمِعْتُ أَبِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَسُئِلَ عَنِ اللَّفْظِيَّةِ، فَقَالَ: «هُمْ جَهْمِيَّةٌ وَهُوَ قَوْلُ جَهْم، ثُمَّ قَالَ: لَا تُجَالِسُوهُمْ». سَمِعْتُ أَبِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ، يَقُولُ: «كُلُّ مَنْ يَقْصِدُ إِلَى الْقُرْآنِ بِلَفْظٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ يُرِيدُ بِهِ مَخْلُوقٌ فَهُوَ جَهْمِيٌّ»)[(١)].

الثانية: **الواقفة**: القائلون: (القرآن كلام الله، ولا نقول مخلوق، ولا غير مخلوق). قال عبد الله بن أحمد: سَمِعْتُ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ وَسُئِلَ عَنِ الْوَاقِفَةِ فَقَالَ أَبِي: «مَنْ كَانَ يُخَاصِمُ وَيُعْرَفُ بِالْكَلَامِ فَهُوَ جَهْمِيٌّ، وَمَنْ لَمْ يُعْرَفْ بِالْكَلَامِ يُجَانَبْ حَتَّى يَرْجِعَ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ يَسْأَلْ»[(٢)].

وقال أبو بكر الآجري: (حَدَّثَنَا ابْنُ مَخْلَدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ يُسْأَلُ: هَلْ لَهُمْ رُخْصَةٌ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ، ثُمَّ يَسْكُتُ؟ فَقَالَ: وَلِمْ يَسْكُتْ؟ لَوْلَا مَا وَقَعَ فِيهِ النَّاسُ كَانَ يَسَعُهُ السُّكُوتُ، وَلَكِنْ حَيْثُ تَكَلَّمُوا فِيمَا تَكَلَّمُوا، لِأَيِّ شَيْءٍ لَا يَتَكَلَّمُونَ؟ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: مَعْنَى قَوْلِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ: لَمْ يَخْتَلِفْ أَهْلُ الْإِيمَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى؟ فَلَمَّا جَاءَ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ فَأَحْدَثَ الْكُفْرَ بِقَوْلِهِ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، لَمْ يَسَعِ الْعُلَمَاءَ إِلَّا الرَّدُّ عَلَيْهِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ بِلَا شَكٍّ، وَلَا تَوَقُّفٍ فِيهِ، فَمَنْ لَمْ يَقُلْ: غَيْرُ مَخْلُوقٍ سُمِّيَ وَاقِفِيًّا، شَاكًّا فِي دِينِهِ)[(٣)].

(١) السُّنَّة، لعبد الله بن أحمد (١/ ١٦٥). (٢) السُّنَّة، لعبد الله بن أحمد (١/ ١٧٩).

(٣) الشريعة، للآجري (١/ ٥٢٧).

الإيمان بالقدر

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(والإيمانُ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه، حُلْوِهِ وَمُرِّهِ، وكلُّ ذلك قَد قَدَّرَهُ اللهُ رَبُّنا، ومقاديرُ الأمورِ بيدِه، ومَصدَرُها عن قضائِه. عَلِمَ كلَّ شيْءٍ قَبل كَونِه، فجَرَى على قَدَرِه، لا يَكون مِن عبادِه قَولٌ ولا عَمَلٌ إلَّا وقدْ قَضاهُ وسبق عِلْمُه به، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾).

الشرح

القدر لغة: مصدر قَدَرْتُ الشيء؛ أي: أَحَطْتُ بمقداره[1].

واصطلاحًا: تعلق علم الله بالكائنات قبل وجودها، وكتابته، ومشيئته لها، وخلقه إياها.

ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيق **أربع مراتب**:

المرتبة الأولى: العلم:

الإيمان الجازم بعلم الله المحيط بكل شيء؛ جملة وتفصيلًا، كليًّا وجزئيًّا، بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علم ما كان، وما يكون، وما سوف يكون، وما لم يكن كيف لو كان يكون، مما يتعلق بأفعاله؛ كالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وما يتعلق بأفعال عباده؛ من الطاعات والمعاصي. وأنه لا يَجِدُّ له علمٌ بعد أن لم يكن، فقد علم المؤمن والكافر، والبر من الفاجر. قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ

(١) لسان العرب: مادة (قدر) (٥/ ٧٤).

عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

المرتبة الثانية: الكتابة:

الإيمان الجازم بكتابة الله تعالى لمقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[1]. وقال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»[2].

وهاتان المرتبتان دلَّ عليهما معًا قول الله عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ [الحج: ٧٠].

المرتبة الثالثة: المشيئة:

الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: ٣٩]، والآيات في إثبات عموم المشيئة أكثر من أن تحصر.

المرتبة الرابعة: الخلق:

الإيمان الجازم بخلق الله عز وجل لجميع الأشياء وتكوينها؛ ذواتها، وصفاتها، وحركاتها، والدليل على ذلك قول الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]؛ أي: خلقكم وخلق أعمالكم، ومعمولاتكم. فما من شيء إلا والله خالقه، فالله الخالق وما سواه مخلوق.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٧٠٠)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠١٨).

ويسمي شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ المرتبة الأولى والثانية «الدرجة الأولى» من درجات القدر، ويسمي المرتبة الثالثة والرابعة «الدرجة الثانية»[١]، وذلك بالنظر إلى منكري القدر؛ لأن منكري القدر طبقتان: غلاة ومقتصدون.

١ ـ **الغلاة**: وهم القدرية الأول، أنكروا الدرجة الأولى، وقالوا: إن الأمر أُنُفٌ، وزعموا أن الله أمر ونهى، ولا يعلم من سيطيعه ومن سيعصيه! وقد ظهروا في أواخر عهد الصحابة، وأدركهم صغار الصحابة؛ كعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، رضوان الله عليهم.

وقد افتتح الإمام مسلم صحيحه بحديث جبريل المشهور، فروى بسنده عن يحيى بن يعمر، قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمٰن الحميري حاجين ـ أو معتمرين ـ فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلًا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمٰن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن، ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: (فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو أن لأحدهم مثل أُحد ذهبًا فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر)، ثم حدث عن أبيه بحديث جبريل، والشاهد منه قوله: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[٢].

ثم إن هذه المقالة ربما انقرضت، أو قلَّ معتنقوها بسبب شناعتها؛ لتضمنها إنكار العلم. وكان الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ يقول لأصحابه: ناظروهم؛

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/١٤٨).
(٢) أخرجه مسلم رقم (٨).

يعني: القدرية ـ بالعلم، فإن أَقَرُّوا به خُصِمُوا، وإن أنكروه كفروا[١]؛ أي: إذا لقيت قدريًّا، فقل له: ما تقول في علم الله؟ فإن قال: يعلم كل شيء، فقل: فقد وقعت أفعال العباد وفق علمه، فهو الذي قدر المقادير، فتخصمه بالحجة، وإن قال: لا يعلم! فقد كفر؛ لأنه وصف الله بالجهل والعجز.

٢ ـ **المقتصدون**: وهم المعتزلة، أنكروا الدرجة الثانية؛ قالوا: عَلِمَ وكتب، لكن لم يشأ ولم يخلق؛ لم يشأ طاعة الطائع، ولا معصية العاصي! فللعبد عندهم مشيئة دون مشيئة الله، والعبد يخلق فعل نفسه دون خلق الله! فأثبتوا خالقًا مع الله؛ بل أثبتوا خالقين بعدد الناس.

ولهذا، جاء في الحديث: «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**»[٢]، ووجه تشبيههم بالمجوس، أن المجوس أثبتوا خَالِقَيْنِ؛ إلٰه النور يخلق الخير، وإلٰه الظلمة يخلق الشر. وهؤلاء القدرية شابهوهم بإثبات خالق مع الله حيث قالوا: العبد يخلق فعل نفسه، فوقعوا في شرك الربوبية كالمجوس.

وعلى النقيض من القدرية: الجبرية، نسبة إلى الجبر، فقد غلوا في إثبات فعل الله حتى سلبوا العبد مشيئته وفعله، وقالوا: العبد مسير مجبور على فعله. **وهم طبقتان**:

١ ـ **غلاة**: وهم زنادقة الصوفية الذين يزعمون الفناء في الحقيقة الكونية، ويبطلون الحقيقة الشرعية، ويزعمون أن أفعالهم وتصرفاتهم اضطرارية كحفيف الأشجار، وجريان الماء في الأنهار، وكالريشة في مهب الريح، وكالقشة على ظهر الماء، وقال قائلهم:

أصبحت منفعلًا لما تختاره مني ففعلي كله طاعات

٢ ـ **مقتصدون**: وهم الأشاعرة القائلون بالكسب. فقد وافقوا الحق بإثبات القدر السابق، وخالفوا الحق بسلب العبد إرادته وفعله الحقيقيين،

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩)، طريق الهجرتين (٢٤٣)، جامع العلوم والحكم (٢٧).
(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٦٩١)، وحسنه الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح رقم (١٠٧).

واصطنعوا نظرية الكسب، التي تقوم على إثبات قدرة غير مؤثرة، ولم يتفقوا على تعريف بيِّنٍ لها، حتى قيل:

مما يقال ولا حقيقة عنده　　معقولة تدنو إلى الأفهام
الكسب عند الأشعري والحال　　عند البهشمي وطفرة النظام

أما أهل السُّنَّة والجماعة فقالوا: للعبد مشيئة، وله فعل، ولكنها داخلة تحت مشيئة الله ومفعولاته؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨ ، ٢٩]، فأثبت لنا مشيئة وفعلًا، وجعلها مندرجة تحت مشيئته. فإذا وافقت مشيئة العبد مشيئة الرب وقع الأمر، وإذا شاء العبد، ولم يشأ الرب، لم يكن إلا ما شاء الرب.

فأهل السُّنَّة والجماعة في «باب أفعال الله» وسط بين طرفي ضلالة؛ بين قوم غَلَوْا في أفعال العباد وأنكروا قدر الله، وهم عموم القدرية، وبين قوم غَلَوْا في أفعال الرب حتى سلبوا العبد إرادته وقدرته وهم الجبرية.

وسر هذا الضلال أن كلًّا من الفريقين أعمل طائفة من النصوص، وأهمل الطائفة الأخرى، أما أهل السُّنَّة والجماعة فقد أعملوا جميع النصوص، فلم يَرَوْا فيها تناقضًا، ولا تعارضًا، ولا اختلافًا، فأقروا بسابق قدره، وأثبتوا مشيئة العبد وفعله.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

❁ (يُضِلُّ مَن يشاء، فيَخْذُلُه بعدْلِه، ويَهدي مَن يَشاء، فَيُوَفِّقُه بفضلِه، فكلٌّ مُيَسَّرٌ بتَيْسيره إلى ما سَبَقَ مِن علمه وقَدَرِه؛ مِن شَقِيٍّ أو سعيدٍ. تعالَى أن يكونَ في مُلْكِهِ ما لا يُريد، أو يكونَ لأَحَد عنه غِنًى، أو يكون خالقٌ لشيءٍ إلّا هو، رَبُّ العباد ورَبُّ أعمالِهم، والمُقَدِّرُ لِحَركاتِهم وآجالِهم. الباعثُ الرُّسُل إليهِم لإقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيهم).

الشرح

مسألة الهدى والضلال من محكمات القرآن التي كثر ذكرها وتقريرها بما يقطع بسبق إرادة الله لها، وإنفاذ مشيئته في عباده بها. **فمن ذلك:**

- قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾ [الأنعام: ١٢٥].

- قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [التوبة: ١٩].

- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ [الحج: ١٦].

- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨].

- قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [المدثر: ٣١]

فيعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أن الهداية والإضلال محض حق الله، ومقتضى ربوبيته، وليس لأحد أن ينازعه فيه، ولا أن يعترض عليه، ولا يحتج به، قال تعالى: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ومشيئته تعالى مقترنة بحكمته وعلمه؛ كما استدل المصنف آنفًا بقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]. فمن وفقه وهداه فبفضله، لما علمه فيه، وما كان منه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال: ٧٠]. ومن أضله وخذله فبعدله، لما علمه فيه، وكان منه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٦، ٤٧].

وأنكرت المعتزلة وقوع الهداية والإضلال من الله، بناءً على أصلهم الفاسد في القدر. وقصرت الهداية على هداية الدلالة والبيان، دون هداية التوفيق والإلهام، وحملت الإضلال على عدم الإعانة على سلوك طريق الهداية.

قوله: (**فكَلٌّ مُيَسَّرٌ بتَيْسيره إلى ما سَبَقَ مِن علمه وقَدَرِه؛ مِن شَقِيٍّ أو سعيدٍ**): عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيُؤْذَنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ؛ فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ**»(١)، وهذا التقدير الجنيني لا يعارض التقدير السابق، فالتقدير **أنواع**:

١ ـ **التقدير الكوني**: هو الذي في اللوح المحفوظ.

٢ ـ **التقدير العُمُرِي**: هو الذي يقع للجنين في بطن أمه كما دل عليه حديث ابن مسعود.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٢٠٨)، ومسلم رقم (٢٦٤٣).

٣ ـ **التقدير الحولي**: الذي يقع ليلة القدر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٣، ٤]. فيقدر الله فيها ما يكون في ذلك العام؛ من حياة وموت، وغنى وفقر، وصحة ومرض، وعز وذل، ولذلك، سميت ليلة القدر.

٤ ـ **التقدير اليومي**: ما يقع كل يوم، قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾ [الرحمن: ٢٩]. فيأمر وينهى، ويرفع ويخفض، ويقبض ويبسط، ويدبر الأمر سبحانه وتعالى.

وهذه التقديرات التفصيلية؛ العمري والحولي واليومي، لا تُعَارِضُ التقدير الكوني العام الذي في اللوح المحفوظ؛ بل هي بمنزلة التفصيل له، وهي مستنسخة منه.

والعبد «ميسر»، لا يقال: «مسير»، ولا «مخير»؛ فعن علي رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة، فأخذ شيئًا فجعل ينكت به الأرض، فقال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ**»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ قَالَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾[(١)].

فالله سبحانه وتعالى قدر المقادير، ونصب الأسباب؛ فجعل الإيمان والأعمال الصالحة سببًا لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ [الزخرف: ٧٢]، كما أنه أجرى المقادير المعاشية وفق السنن الكونية، والأسباب الحسية.

قوله: (**تعالَى الله أن يكونَ في مُلْكِهِ ما لا يُريد، أو يكونَ لأَحَد عنه غِنًى، أو يكون خالقٌ لشيءٍ، ألَا هو رَبُّ العباد، ورَبُّ أعمالِهم، والمُقَدِّرُ لِحَركاتِهم وآجالِهم**).

هذه الجملة رد على منكري القدر، الذين يزعمون أن العبد يخلق فعل

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٩٤٩)، ومسلم رقم (٢٦٤٧).

نفسه؛ بدعوى أن الله لا يريد المعاصي؛ فنقول: لم يُرِدْهَا شرعًا، لكنه أرادها كونًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فالإرادة الربانية نوعان: إرادة كونية قدرية، وإرادة دينية شرعية، وبينهما **فروق**:

الفرق الأول: إرادة الله الكونية لا بد من وقوعها، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]. أما الإرادة الشرعية فقد تقع وقد لا تقع؛ قال الله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، ولم يؤمن جميع الناس، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ولم يقع ذلك من أكثر الناس.

الفرق الثاني: الإرادة الكونية قد يحبها الله ويرضاها، وقد لا يحبها ولا يرضاها، أما الإرادة الشرعية فإن الله دومًا يحبها ويرضاها؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. مثال ذلك: أراد الله كونًا إنزال الكتب وإرسال الرسل وذلك محبوب لله مرضي له، كما أراد الله كونًا خلق إبليس، وهو غير محبوب لله، ولا مرضي له؛ بل مبغوض، لكن خلقه لحكمة كما سيأتي. ولا يمكن أن يريد الله شرعًا إلا محبوبًا له؛ كالصلاة والزكاة والحج والصوم، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

الفرق الثالث: أن الإرادة الكونية قد تكون مرادة لذاتها، وقد تكون مرادة لمآلاتها. أما الإرادة الشرعية فهي دومًا مرادة لذاتها؛ فالله ﷻ أراد كونًا إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهذا مراد لذاته. كما أراد الله كونًا خلق إبليس لما يترتب على خلق من مقاصد ومصالح؛ لا لذاته بل لمآلاته. فلولا خلق إبليس ما تميز المؤمنون من الكفار، ولا الأبرار من الفجار، ولا قام سوق الجنة والنار، ولا التوبة والاستغفار، ولا الجهاد في سبيل الله، ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا الدعوة إلى الله؛ بل ولما ظهرت معاني أسماء الله الحسنى من أسماء الكمال والجمال، وأسماء العزة والجلال.

يشغب بعض الملحدين، فيقول: لماذا يخلق الله الآلام والأمراض؟ لماذا يخلق الله العقارب والحيات والذباب؟ لماذا يقدر الله الظلم والقتل والاغتصاب؟ ونحو هذه الأسئلة التشكيكية. فهؤلاء المتجرئون على مقام الربوبية قاصرو النظر، لا يدركون الحكم الغائية في تقدير هذه الأمور المكروهة، وما يترتب عليها من مصالح. فلولا البلاء لم تتحقق عبادة الله حق عبادته؛ من الحب والخوف والرجاء، فإذا مسنا الضُّر لجأنا إليه واستعتبنا وتبنا؛ لأنه يُرِينا قدرته علينا.

ومن آثارها تكفير الخطايا؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «**يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ؛ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ؛ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»(١).

ومن آثارها تشوُّف المؤمن للنعيم الأخروي الخليِّ من المنغصات في دار السلام، فيجتهد في طلبها، والفرار من العذاب السرمدي في النار، وقد أراه الله «أنموذجًا» يسيرًا منهما في الدنيا. إلى غير ذلك من الحكم التي لا تتحقق إلا بهذا الوضع الرباني.

فكل ما قدره الله فهو لحكمة. وهو سبحانه وتعالى منزه عن السفه والعبث، لكن هذه الحكمة قد تظهر للناس تارة، وتحتاج إلى تأمل وتفكير تارة. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾ [الأنبياء: ١٦]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧﴾ [ص: ٢٧].

قوله: (أو يكون لأحد عنه غنى): قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: ١٥]؛ بل السماوات والأرض لا تقوم إلا بأمره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الروم: ٢٥]، ولهذا، كان من أسمائه القيوم، وهو القائم بنفسه المقيم لغيره.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١/ ١٧٣، ١٨٠)، والترمذي رقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه رقم (٤٠٢٣)، وصححه الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح رقم (١٤٣).

قوله: (**أو يكون خالقٌ لشيء إلا هو**): هذا ردٌّ على القدرية الذين ينسبون الخلق إلى غير الله ﷻ، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦]، وقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٢].

قوله: (**رَبُّ العباد، ورَبُّ أعمالِهم، والمُقَدِّرُ لِحَركاتِهم وآجالِهم**): قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]. قال ابن جرير: (وفي قوله: ﴿وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ **وجهان**: **أحدهما**: أن يكون قوله: «ما» بمعنى المصدر، فيكون معنى الكلام حينئذ: والله خلقكم وعملكم، **والآخر**: أن يكون بمعنى «الذي»، فيكون معنى الكلام عند ذلك: والله خلقكم والذي تعملونه؛ أي: والذي تعملون منه الأصنام، وهو الخشب والنحاس والأشياء التي كانوا ينحتون منها أصنامهم)[1].

فجميع الطاعات، وجميع المعاصي بقدر الله، وذلك لا يتنافى مع فعل العبد له، فهي فعل العبد، ومفعول الرب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً وَاللهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ؛ وَالْعَبْدُ هُوَ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ وَالْمُصَلِّي وَالصَّائِمُ؛ وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَلَهُمْ إرَادَةٌ؛ وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ)[2].

ولا يصح الاحتجاج بالقدر على ترك الطاعات أو على فعل المعاصي، **لوجوه**:

أولًا: قول الله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨]: تضمن الرد على المحتجين بالقدر من **ثلاثة وجوه**:

- قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، فسمى الله تعالى مقالتهم كذبًا، والكذب هو مخالفة الخبر للواقع.

---

(١) جامع البيان، ت. شاكر (٢١/ ٧٠). (٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٠).

- قوله: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾، ولو كان لهم حجة في القدر ما أذاقهم الله بأسه؛ لأن الله ﷻ حَكَمٌ عدل مقسط، لا يذيقهم بأسه وهم ليسوا أهلًا له.

- قوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾؛ يعني: هل اطلعتم على اللوح المحفوظ، ووجدتم فيه أنكم تشركون بالله، وأنكم تحرمون ما أحل الله، حتى تتخذوا من علمكم هذا ذريعة تحتجون بها على فعلكم؟ والجواب: أنهم لا علم عندهم! فحقيقة الحال: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فإذا قال لك العاصي: هذا قدر الله علي، قل له: متى علمت أن هذا قدر الله عليك، قبل الفعل أم بعده؟ فلا يستطيع أن يدعي أنه علم أن الله قدَّر عليه شُرب الخمر قبل أن يشربها؛ بل علم بعد أن شربها. فَقَدَرُ الله سرٌّ مكنون، وغيب مستور لا يتمكن أحد من العلم به إلا بعد وقوعه، وإذا وقع لم يتم الاحتجاج به.

ثانيًا: قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]: الحجة الوحيدة التي يمكن أن يحتج بها الناس على الله، أن يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقطع الله حجتهم، وأرسل الرسل وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]. فلو كان في القدر حجة للعباد لم يكن فائدة من إرسال الرسل.

ثالثًا: قوله ﷺ لما قالوا له: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، قال: «**لَا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ**»(١)، والنبي ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم؛ فلو كان الاتكال على القدر سائغًا، لقال: لا تُكَلِّفُوا أنفسكم، واتكلوا على كتابكم.

رابعًا: أن هؤلاء المبطلين لا يحتجون بالقدر في أمورهم الدنيوية

(١) تقدم تخريجه.

والمعاشية، فكيف يحتجون به في أمورهم الدينية؟! فتجد أحدهم يخرج بعد الفجر في البرد القارس، وفي شدة القيظ بعد الظهر لطلب الرزق، ولو قيل له: لماذا تخرج، والله ﷻ قد قسم الأرزاق، وكتب المقادير؟ اقعد في بيتك مستدفئًا في الشتاء، مستظلًّا في الصيف، ولا تتعنَّ! لقال: لا، لا بد من فعل الأسباب، لا بد من العمل. وصدق، لكن لم لا تقول مثل هذا في الأمور الدينية؟ فالجنة لا تنال بدون عمل، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢].

ويُروى أن سارقًا رُفع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأمر بقطع يده، فقال: مهلًا يا أمير المؤمنين، إنما سرقت بقدر الله، فقال عمر رضي الله عنه: ونحن نقطع يدك بقدر الله. ولما امتنع عمر رضي الله عنه عن دخول الشام، لمَّا وقع فيها الطاعون، المشهور بطاعون عمواس، كتب إليه أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، تفر من قدر الله؟ فكتب إليه عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نفر من قدر الله إلى قدر الله.

فالواجب على الإنسان أن يبحث عما يصلحه ويناسبه ويلائمه في أمر دينه ودنياه، ولا يتعلل بالقدر. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»(١).

وهذا الحديث من دساتير السعادة، فتواجه الأمور المستقبلية بالحرص، والاستعانة بمعبودك للوصول إلى مقصودك، وتدع العجز والكسل، فلا تقل: ربما، قد، لعل، وتدع العمل. وتواجه الأمور الواقعة التي تبين فيها قدر الله بالرضا، وعدم التحسر والندم، فلا ينفعك أن تقول: لو أنني فعلت كذا، فإن

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٦٦٤).

ذلك لا يرد مفقودًا. فلو التزم العبد بهذا الحديث لما قعد، ولَمَا ندم، ولا ضاق صدره، ولأفلح وأنجح. ولهذا، قال ربنا ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].



الإيمان بالرسل

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(الباعثُ الرُّسُل إليهِم لإقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيهم. ثُمَّ خَتَمَ الرِّسالةَ والنَّذَارَةَ والنُّبُوَّةَ بمحمَّد نَبيِّه ﷺ، فجعَلَه آخرَ المرْسَلين، بَشِيرًا ونَذِيرًا، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾، وأنزلَ عَليه كتابَه الحَكِيمَ، وشَرَحَ به دينَه القَويمَ، وهَدَى به الصِّرَاطَ المستَقيمَ).

الشرح

في هذه القطعة إشارة إلى الركن الرابع من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالرسل. فيجب علينا أن نؤمن برسل الله جميعًا، وألا نفرق بين أحد منهم. ومعنى الإيمان بالرسل: الاعتقاد الجازم أن الله تعالى اصطفى رجالًا من أهل القرى، وأنزل عليهم وحيه، وأرسلهم إلى أقوامهم مبشرين ومنذرين؛ رحمةً بهم، وإقامةً للحجة عليهم، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. ولا يتم الإيمان بالرسل إلا بالإيمان **بأربعة أمور:**

أحدها: الإيمان بأن رسالتهم من عند الله حقٌّ، لم ينالوها بكسب، أو رياضة، أو مجاهدة، أو باجتماع قوى معينة، كما يزعم الملاحدة من غلاة الصوفية والفلاسفة؛ بل بمحض اصطفاء الله وحكمته، وعلمه بهم، قال

تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال رادًّا على المقترحين: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه، ومن لم نعلم اسمه نؤمن به إجمالًا. وقد سمى الله لنا في كتابه خمسةً وعشرين نبيًّا رسولًا، ذكر منهم ثمانية عشر في موضع واحد في سورة الأنعام. وعدتهم أكثر من ذلك بكثير؛ كما قال ربنا: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

الثالث: تصديق ما صح من أخبارهم: ولا نعلم خبرًا يصح عن رسول، إلا ما روي عن نبيّنا محمد ﷺ من الأحاديث الصحيحة التي اعتنت الأمة بتحملها وأدائها ونقد رجالها. وأما سائر الأنبياء فليس إليهم سند متصل، وما ينسب إليهم في المرويات «الإسرائيلية» فقد دخله التحريف والكذب، فلا يعول عليه، ولا يقطع بصحة نسبته إليهم.

الرابع: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم: وهو نبيُّنا محمد ﷺ، فليس لأحد بعد بعثته إلا أن يؤمن به ويتبعه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧، ١٥٨]. وفي حديث الخصائص: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١)، وفي رواية: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ**

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٣٥).

يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي؛ كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ...»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(٢).

فلنبيّنا محمد ﷺ خصائص دون غيره من الأنبياء، ومنها: أنه خاتم النبيين؛ قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؛ فختم الله تعالى به الرسالة والنذارة والنبوة؛ فلا نبي بعده.

وكل دعوى نبوة بعده فمحض افتراء، ففي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ**»(٣)، وفي حديث آخر صحيح أنه قال: «**سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ رَجِلًا وَثَلَاثُ نِسْوَة**»(٤).

وهؤلاء الدجالون الكذابون الذين يدَّعون النبوة، ظهر بعضهم في عهد النبي ﷺ؛ مثل: مسيلمة الكذاب، وسجاح التميمية، والأسود العنسي، وظهر مدعون بعدهم على مر القرون. وسوف يَبْلُغون المبلغ الذي أخبر عنه النبي ﷺ، والظاهر أن المقصود من يكون له شهرة وأتباع، وأما مدعو النبوة من المهووسين فلا حصر لهم، وكتب الأدب والتاريخ طافحة بأخبارهم. ومن أواخر مدعي النبوة المتبوعين: «ميرزا غلام أحمد القادياني» الذي ظهر في بلاد الهند، إبان سيطرة الإنجليز.

وبهذا يتبين بطلان دعوة التقريب بين الأديان، التي ينادي بها بعض

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٥٢١). (٢) أخرجه مسلم رقم (١٥٣).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٦٠٩)، ومسلم رقم (١٥٧).
(٤) أخرجه أحمد رقم (٢٣٣٥٨).

الزنادقة، ويقول قائلهم: الأديان سواء! لكل أحد أن يتدين بما شاء، ويسوغ اليهودية والنصرانية؛ بل منهم من يصحح دين البوذية والهندوسية وغير ذلك من ملل الكفر، ويزعم أنها طرائق توصل إلى الله. وهذا من أكفر الكفر؛ قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].



الإيمان بالكتب

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وأنزَلَ عَليه كتابَه الحَكِيمَ، وشَرَحَ به دينَه القَويمَ، وهَدَى به الصِّرَاطَ المستَقيمَ).

الشرح

وصف الله كتابه بالحكيم في مواضع؛ كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس: ١]، [لقمان: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ٣، ٤]. والحكيم بمعنى: المحكم والحاكم، فهو محكم متقن لا تناقض فيه ولا اضطراب؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، كما أنه حاكم فاصل، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقد قام نبيّه ﷺ بشرحه وبيانه، كما أراد ربه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، ولهذا، جعل ربنا «البينة» مجموع أمرين، فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: ١ ـ ٣].

كما أن القرآن العظيم هو طريق الهداية، ووسيلة الاهتداء، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ

رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢]. فالمعول في كل شيء على القرآن.

وفي هذه الجملة إشارة إلى الركن الثالث من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالكتب، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وكما أثنى على عباده المتقين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤].

ولا يتم الإيمان بالكتب إلا بالإيمان **بأربعة أمور**:

أحدها: الإيمان بأنها منزَّلة من عند الله حقًّا، وأنها كلامه، لا كلام غيره، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾ [آل عمران: ٣].

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه؛ كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن، وصحف إبراهيم، وما لم نعلم اسمه نؤمن به إجمالًا، قال تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

الثالث: الإيمان بما صح من أخبارها؛ وقد تكفَّل الله بحفظ القرآن فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وأما بقية الكتب فقد وكل حفظها لأهلها، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ﴾ [المائدة: ٤٤]. وأخبرنا سبحانه بوقوع التحريف فيها، والاتجار بذلك، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩]، وقال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]، كما أخبر عن كتمانهم لها، وإخفائها، فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ

أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

وتأسيسًا عليه، فإن المرويات التي بأيديهم ـ «الإسرائيليات» ـ تنقسم إلى **ثلاثة أقسام**:

١ ـ ما شهد كتابنا بصدقه: فنصدقه من حيث الجملة؛ كذكر خلق آدم وحواء، ونوح والطوفان، وإبراهيم ولوط، ويعقوب ويوسف، وموسى وفرعون، دون ما يذكرونه من تفاصيل.

٢ ـ ما شهد كتابنا بكذبه، فنكذبه؛ كزعمهم أن الله ندم وبكى! تعالى عما يقولون، وأن لوطًا شرب الخمر وزنى بابنتيه، وأن سليمان عبد الأوثان، صلوات الله وسلامه على أنبيائه.

٣ ـ ما لم يشهد كتابنا بصدقه ولا كذبه: فلا نصدقه ولا نكذبه، لقوله ﷺ: «**إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ؛ فَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُمْ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا لَمْ تُصَدِّقُوهُمْ**»(١). غير أنه يجوز التحديث عنهم، مما لا يتضمن باطلًا؛ لقوله ﷺ: «**وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ**»(٢).

الرابع: العمل بأحكام ما لم ينسخ منها: وهو ما أقره كتاب الله الخاتم؛ القرآن. فقد ذكر الله تعالى كتبه الكبار على نسق في سورة المائدة؛ فقال أولًا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، ثم ثنَّى فقال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ﴾ [المائدة: ٤٧]، ثم ثلَّث فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن

(١) مسند أحمد، ط. الرسالة رقم (١٧٢٢٥). وإسناده حسن. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٨٠٠).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٤٦١).

لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٨ ـ ٥٠].

فقد أنزل على نبيّه محمدًا ﷺ القرآن العظيم وجعله مستودعًا للعقائد الصحيحة، والشرائع العادلة، والأخلاق القويمة، والمواعظ النافعة. وإنما أُتِيَ المسلمون بسبب تقصيرهم في الاهتداء بالقرآن، ولو ردوا كل شيء إلى كتاب الله لوجدوا فيه الغنية، والنور، والشفاء، والهدى، والموعظة، والبيان، والمخرج من كل فتنة عمياء مظلمة. ولمَّا صار المسلمون يزخرفون القرآن، ويكتبونه بماء الذهب، ويغلفونه بالأغلفة الثمينة، ويعلقونه في صدور المجالس، أو يضعونه في القوالب الفاخرة لمجرد البركة، وأعرضوا عن العمل به، حصل من التقهقر ما حصل. ولما كانوا يكتبونه على الرِّقَاع واللِّخَاف والعظام، وكان في سويداء قلوبهم سادوا الدنيا. فتعظيم كتاب الله يكون بتلاوته، وتدبره، والعمل به، والاهتداء به.



الساعة والإيمان باليوم الآخر

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وأنَّ السَّاعةَ آتيَةٌ لا رَيْبَ فيها، وأنَّ اللهَ يَبعَثُ مَن يَموتُ، كما بدأهم يعودون).

الشرح

تكرر هذا المعنى في القرآن في مواضع؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١]، [الحج: ٧]، [غافر: ٥٩]، [الجاثية: ٣٢]. والساعة: هي الأجل الذي حدَّه الله لانقضاء الحياة الدنيا، وانثار نظام الكون. وهي موصوفة في القرآن **بجملة من الأوصاف**:

- **الخفاء**: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ﴾ [فصلت: ٤٧].
- **المباغتة**: قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٣١]، وقال: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [يوسف: ١٠٧]، وقال: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الحج: ٥٥].
- **السرعة**: قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].
- **العظمة**: قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٧]،

وقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج: ١]، وقال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ [القمر: ٤٦]

ـ **القرب**: قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧﴾ [الشورى: ١٧].

وفي هذه الجملة إشارة إلى الركن الخامس من أركان الإيمان، وهو الإيمان باليوم الآخر، وكثيرًا ما يَقْرِنُ الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [البقرة: ٦٢]، وقال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولا يتم إيمان إنسان باليوم الآخر إلا بالإيمان بأربعة أمور:

أحدها: الإيمان بما يكون في القبر؛ من سؤال الملكين، وما يعقبه من عذاب أو نعيم.

الثاني: الإيمان بالبعث، وهو إخراج الله الناس من قبورهم أحياءً، حفاة، عراة، غرلًا، بُهمًا.

الثالث: الإيمان بالحساب.

الرابع: الإيمان بالجزاء؛ إما بالجنة أو النار.

ومن أنكر البعث كفر؛ قال الله ﷻ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «**الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ**»(١). حُفَاةً: غير مُنْتَعِلِين، عُرَاةً:

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٥٢٧)، ومسلم رقم (٢٨٥٩).

غير مُكْتَسِين، غُرْلًا: غير مَخْتُونِين، بُهْمًا: ليس معهم شيء. قال الله ﷻ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال ﷻ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، حتى القُلفَة التي تكون على رأس الذكر، وتقطع في الختان، تعود مع صاحبها، والذي هلك، فتمزق وتفرق في بطون السباع، وحواصل الطير، وأجواف الحيتان، يعيده الله تعالى خلقًا جديدًا، قال ﷺ: «**وَلَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١)، وعَجْبُ الذنب: العُصْعُص أسفل الظهر.



(١) أخرجه البخاري رقم (٤٨١٤)، ومسلم رقم (٢٩٥٥).

المكفرات وحكم مرتكب الكبيرة

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ضاعَفَ لعباده المؤمنين الحسَنات، وصَفَحَ لهم بالتَّوبَة عن كبائرِ السيِّئات، وغَفَرَ لهم الصَّغائرَ باجْتناب الكبائِر، وجَعَلَ مَن لَم يَتُبْ مِنَ الكبائر صَائرًا إلى مَشيئَتِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، ومَن عاقَبَه اللهُ بنارِه أخرجه مِنها بإيمانِه، فأدخلَه به جنَّتَه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾، ويُخرجُ منها بشفاعة النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن شَفَعَ لَه مِن أهلِ الكبائِر مِن أمّتهِ).

الشرح

من عظيم فضل الله على عباده تضعيف الحسنات، دون السيئات، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦٠﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ؛ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ؛ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي**»[1].

فمن رجحت حسناته بسيئاته فقد أفلح وأنجح، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

(١) أخرجه مسلم رقم (١١٥١).

كما أنه سبحانه يغفر كبائر الإثم والسيئات بالتوبة النصوح؛ فقد قال بعد أن ذكر أمهات المعاصي؛ من الشرك، والقتل، والزنا: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠]. فمن تاب، تاب الله عليه، ومحا سيئاته. وهذه من أجلّ النعم؛ فإن التوبة تجُبُّ ما قبلها، ولو لم تشرع التوبة لبقي الإنسان رهين ذنبه ومعصيته، لا ينفك منها. ولما قدم عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى النبي ﷺ مبايعًا، قال: يا رسول الله، ابسط يدك أبايعك، فبسط النبي ﷺ يده، فقبض عمرو يده، فقال النبي ﷺ: «**مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟**»، فقال: يا رسول الله، أشترط، فقال النبي ﷺ: «**تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟**» قال: أن يُغفر لي، قال النبي ﷺ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ**»(١). التوبة باب رحمة واسع، إذا أذنبت فارفع يديك وقل: أستغفر الله وأتوب إليه؛ تب إلى ربك فيتوب الله عليك، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤].

كما أنه سبحانه يغفر الصغائر واللمم، في حال اجتناب الكبائر، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾ [النجم: ٣٢]. والكبائر: جمع كبيرة، ومن أحسن ما قيل في حدها: (إِنَّهَا مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا حَدٌّ أَوْ تُوُعِّدَ عَلَيْهَا بِالنَّارِ، أَوِ اللَّعْنَةِ، أَوِ الْغَضَبِ، وَهَذَا أَمْثَلُ الْأَقْوَالِ)(٢). والصغيرة: ما لم تبلغ حد الكبيرة.

والناس في حكم مرتكب الكبيرة؛ من عصاة الموحدين، طرفان ووسط:

الطرف الأول: الوعيدية، سموا بذلك لأنهم قالوا بإنفاذ الوعيد،

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٢١).

(٢) شرح الطحاوية، ت. الأرناؤوط (٢/ ٥٢٥).

وأنكروا الشفاعة. وهم طائفتان: الخوارج والمعتزلة. قالوا: إن مرتكب الكبيرة خارج عن مسمى الإيمان في الدنيا، مخلد في النار في الآخرة؛ فالخوارج تقول: خرج من الإيمان، ودخل في الكفر، والمعتزلة تقول: خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر! واخترعوا مقالة لم يُسبقوا إليها وهي: «المنزلة بين المنزلتين»؛ لا مؤمن ولا كافر، مع اتفاقهم على تخليده في النار.

الطرف الثاني: **المرجئة**، سموا بذلك لأنهم أرجؤوا الأعمال عن الإيمان. قالوا: إن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان في الدنيا، وأنه في الجنة. وقال غلاتهم: لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ونصوص الوعيد لمجرد التهييج، ولا يترتب عليها أثر.

الوسط: **أهل السُّنَّة والجماعة**، توسطوا في الاسم والحكم:

في الاسم: قالوا: إن مرتكب الكبيرة يسمى مؤمنًا، لكنه مؤمن ناقص الإيمان، أو: مؤمن فاسق، أو: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته. فلا يسلبونه مطلق الاسم، ولا يعطونه الاسم المطلق.

في الحكم: قالوا: هو في الآخرة تحت المشيئة والإرادة؛ إن شاء الله عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه بِقَدْرِ ذنوبه ومآله إلى الجنة؛ لأن معه حسنة التوحيد والإيمان.

وهذا القول هو الذي دلَّت عليه النصوص؛ قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، فهذا صريح في أن مرتكب الكبيرة الذي لم يبلغ حد الشرك، تحت المشيئة.

والدليل على أن مرتكب الكبيرة يسمى مؤمنًا، قول الله ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، والاقتتال بين المؤمنين كبيرة، وقد سماهم مؤمنين، وأثبت لهم الأخوة الإيمانية؛ فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]؛ فسمي القاتل أخًا للمقتول.

وعن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه، قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ، وَالحَسَنُ بْنُ

عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً، وَعَلَيْهِ أُخْرَى، وَيَقُولُ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**»[1]؛ فأبقى النبي ﷺ أصحاب علي، وأصحاب معاوية في وصف الإسلام رغم وقوع الاقتتال بينهم.

ومن ذلك أن المسلمين أجمعوا على أن من لزمته كفارة بعتق رقبة؛ فأعتق عبدًا مسلمًا، زانيًا، سارقًا، شاربًا للخمر، مغتابًا، نمامًا، أجزأه؛ لدخوله في عموم قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

فأما قوله ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[2]؛ فإن الإيمان المنفي هنا هو الإيمان الواجب، وليس أصل الإيمان. وربما عبر بعض العلماء بالإيمان الكامل، يريدون المتضمن للإيمان الواجب؛ لأنه لو كان المنفي أصل الإيمان لما اكتفي بجلد الزاني والشارب، وقطع السارق، ولصاروا مرتدين، والمرتد حكمه القتل.

قوله: (**وَمَن عاقَبَه اللهُ بنارِه، أخرجه مِنها بإيمانِه، فأدخَلَه به جَنَّتَه. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾**): هذا لعصاة الموحدين الذين شاء الله أن يعذبهم بذنوبهم، فإنهم يخرجون من النار بسبب حسنة التوحيد. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ** - أَوْ قَالَ: **بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**»[3]. وفي المتفق عليه: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ**

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٧٠٤).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٤٧٥)، ومسلم رقم (٥٧).
(٣) أخرجه مسلم رقم (١٨٥).

قَالَ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ»(١).

(الشفاعة)

قوله: (ويُخرجُ منها بشفاعَة النَّبِيِّ ﷺ مَن شَفَعَ لَه مِن أهلِ الكبائِر مِن أمَّتِه): من أصول أهل السُّنَّة والجماعة الإيمان بشفاعة النبي ﷺ.

والشفاعة في اللغة: مشتقة من الشَّفْعِ، والشفع ضد الوِتر. وسميت شفاعة لأن المشفوع له كان وترًا، فانضم إليه الشافع فصارا شفعًا.

واصطلاحًا: سؤال الخير للغير.

فمن الشفاعات ما هو خاص بنبيِّنا ﷺ لا يشاركه فيها أحد. **وهي ثلاثة أنواع**:

النوع الأول: شفاعته لأهل الموقف أن يُقضى بينهم: وهي المقام المحمود الذي رجَّى الله نبيّه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]، وفصّله ﷺ بقوله: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمٰنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي»(٢). فتكون أمة محمد

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٤)، ومسلم رقم (١٩٣).

(٢) تقدم تخريجه.

أول من يُقضى بينهم من الخلائق يوم القيامة، فهذه أخص أنواع الشفاعة وأشرفها.

النوع الثاني: **شفاعته لعمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب**: فقد قال تعالى عن المشركين: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، وقد سأل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، نبي الله ﷺ فقال: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»(١).

النوع الثالث: **شفاعته لأهل الجنة في دخول الجنة**، فإنه لا سبيل لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة إلا بواسطة؛ يقول ﷺ: «**آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ**»(٢).

وأما الشفاعات العامة التي يشترك فيها النبي ﷺ، والنبيون، والشهداء، والصالحون، والملائكة المكرمون، **فأنواع**:

١ ـ شفاعته ﷺ فيمن استحق النار من عصاة الموحدين، ألا يدخلها.

٢ ـ شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من عصاة الموحدين، أن يخرج منها.

وهذان النوعان تنكرهما الوعيدية؛ من الخوارج والمعتزلة، ويقولون: من استحق النار وجب على الله أن يخلده فيها، ومن دخل النار لا يجوز لله أن يخرجه منها! ولذلك، سُموا الوَعِيدِيَّة؛ لقولهم بإنفاذ الوعيد. ومقالتهم مردودة بما تقدم من نصوص الكتاب والسُّنَّة الصحيحة.

٣ ـ الشفاعة فيمن تساوت حسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنة، وهم أهل الأعراف.

٤ ـ الشفاعة في رفع درجات بعض المؤمنين.

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٢٠٨)، ومسلم رقم (٢٠٩).
(٢) أخرجه مسلم رقم (١٩٧).

٥ ـ الشفاعة لبعض المؤمنين في دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب، كما دلَّ عليه حديث عُكَّاشَة بن مِحْصَن الأَسَدِي، فإن النبي ﷺ قال: «**يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ**»، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**»، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، ادْعُ اللهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»(١).

۞ والشفاعة، في كتاب الله، إما شفاعة مثبتة، أو شفاعة منفية:

فالشفاعة المثبتة: ما اجتمع فيها **شرطان**:

١ ـ إذن الله للشافع أن يشفع: قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢ ـ رضاه عن المشفوع له: قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقد جمع الله بين الشرطين فقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وأما الشفاعة المنفية: فهي الشفاعة التي يعتقدها المشركون لآلهتهم، فتُطلَبُ من غير الله، وقد قال الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزمر: ٤٤]؛ فاختل فيها الشرطان.



(١) أخرجه البخاري رقم (٥٧٥٢)، ومسلم رقم (٢٢٠).

الجنة والنار

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وأنَّ اللهَ سبحانه قد خَلَقَ الجَنَّةَ فأَعَدَّها دارَ خُلُود لأوليائِه، وأكرَمهم فيها بالنَّظر إلَى وَجْهِه الكريم، وهي الَّتِي أَهْبَطَ منها آدَمَ نبِيَّه وخلِيفَتَه إلى أَرضِه، بِما سَبَقَ فِي سابِق عِلمِه، وخَلَق النَّارَ فأعَدَّها دَارَ خُلُود لِمَن كَفَرَ به وألْحَدَ في آياتِه وكتُبه ورُسُلِه، وجَعَلَهم مَحجُوبِين عن رُؤيَتِه).

الشرح

تضمنت هذه القطعة **مسألتين**:

إحداهما: إثبات الجنة، وأنها الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه المؤمنين؛ قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وإثبات النار، وأنها الدار التي أعدها الله لأعدائه الكافرين؛ قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ [آل عمران: ١٣١].

فأما الجنة ففيها من أصناف النعيم الحسي والمعنوي ما لا يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال؛ كما قال ربنا عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال في الحديث القدسي: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١)؛ من

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٧٧٩)، ومسلم رقم (٢٨٢٤).

صنوف النعيم الحسي من المآكل والمشارب والمناكح والمفارش والملابس، والنعيم المعنوي من الدعة والفرح والأنس والبشرى.

وقد ذكر الله في كتابه العزيز جملة صالحة من وصف هذا النعيم؛ كما في سورة الإنسان، وغيرها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء(١). فالأسماء واحدة؛ ماء، وعسل، ولبن، وخمر، وحرير، وإستبرق، ولكن الحقائق مختلفة! بل إن الشيء يكون له صورة واحدة في الجنة وتكون حقائقه متفاوتة؛ كما قال الله عز وجل عن أهل الجنة: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

وأما النار ففيها من صنوف العذاب الحسي والمعنوي ما تقشعر له الأبدان، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].

ويعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، وأنهما باقيتان لا تفنيان؛ فقد أخبر النبي ﷺ عن هاتين الدارين حين صلى الكسوف بأصحابه، فقال: «**لَقَدْ رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وُعِدْتُهُ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُ أُرِيدُ أَنْ آخُذَ قِطْفًا مِنَ الجَنَّةِ، حِينَ رَأَيْتُمُونِي جَعَلْتُ أَتَقَدَّمُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ، وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ**»(٢)؛ فهذا دليل على أن الجنة والنار موجودتان الآن، وأن الله عز وجل خلقهما وأعدهما وهيأهما.

وهاتان الداران باقيتان لا تفنيان، خلافًا لما ذهب إليه جهم بن صفوان، وغيره من أصحاب المقالات الباطلة، من أن نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار، يتحول إلى حال من الجمود، فتبقى صورهم وأشباحهم على ما هم عليه من نعيم أو عذاب! وهذه مقالة باطلة؛ فقد قال الله عز وجل عن أهلهما: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٩٢).

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٢١٢)، ومسلم رقم (٩٠١).

وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٨].

الثانية: إثبات رؤية الباري ﷻ. فيعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أن المؤمنين يرون ربهم عِيَانًا بأبصارهم يوم القيامة، رؤية حقيقية. ويعدون ذلك من أعظم النعيم الذي يناله المؤمنون. وقد دلت على ذلك أدلة الكتاب والسُّنَّة وإجماع المسلمين:

❁ فمن أدلة الكتاب على إثبات الرؤية:

أولًا: قول الله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]؛ (ناضرة) من النَّضْرَةِ، وهي البهاء والرَّوْنَقُ والحسن، (ناظرة) من النظر، وهو المعاينة بالأبصار.

وفعل «نظر» إذا جاء مطلقًا دلَّ على التريث والانتظار، وإذا تعدى بـ«في» دل على التأمل والاعتبار، وإذا تعدى بـ«إلى» دل على المعاينة بالأبصار.

وإنما نَضَرَتْ وجوه أهل الجنة بسبب النظر إلى وجه الله الكريم؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيا نظرةً أهدت إلى الوجه نضرة   أمن بعدها يسلو المحب المتيم(١)

ثانيًا: قول الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: ٢٦]، فسَّرها النبي ﷺ بأنها النظر إلى وجه الله الكريم، قال ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ**»، قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟**» قَالَ: «**فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** ﷻ»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾(٢).

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٦).
(٢) صحيح مسلم رقم (١٨١)، وانظر: تفسير الطبري (١٥/ ٦٥).

ثالثًا: قول الله ﷻ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ [ق: ٣٥]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ صُهَيبِ بْنِ سِنَانٍ الرُّومِيِّ: أَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ. وَقَدْ رَوَى الْبَزَّارُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ؛ مِنْ حَدِيثِ شَرِيكٍ الْقَاضِي، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عُمَيْرٍ أَبِي الْيَقْظَانِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾؛ قَالَ: يَظْهَرُ لَهُمُ الرَّبُّ ﷻ، فِي كُلِّ جُمُعَةٍ)[١].

رابعًا: ما استنبطه الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٣]، بأنه النظر إلى وجه الله الكريم، وهذا من ثاقب فكره، وعميق فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه لما حُجِبَ أولئك في السَّخَط، نظر هؤلاء في الرضا؛ فقد قال الله ﷻ عن الفجار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: ٧ ـ ١٥]، وقال عن الأبرار: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣﴾، ينظرون إلى ما حُجِبَ عنه أولئك[٢].

۞ وأمَّا أدلة السُّنَّة:

فقد تواترت الأحاديث على إثبات الرؤية، ومن أصرحها وأصحها قول النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»، أو «**لَا تَضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»[٣]. لا تُضَامُونَ؛ أي: لا يلحقكم ضَيْمٌ، والضيم: المذلة. أو: لا تَضَامُّونَ في رؤيته؛ أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض وتتزاحمون؛ بل تنظرون إليه كما ترون القمر ليلة البدر. وهذا من تشبيه الرؤية بالرؤية، وليس من تشبيه المرئي بالمرئي؛ لأن الله ﷻ ليس كمثله شيء، بجامع عدم التضام، وعدم الضيم، كما يرى أحدنا القمر ليلة البدر.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ت. سلامة (٧/ ٤٠٧).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٣٥١).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٥٥٤)، ومسلم رقم (٦٣٣).

❁ وقد أجمع أهل السُّنَّة والجماعة، على إثبات رؤية المؤمنين لربهم في موضعين:

الموضع الأول: في عَرَصَاتِ القيامة، وهي مواقف الحساب، جمع عَرَصَة، وهي المكان الفسيح الرحب، كما دل على ذلك حديث أبي سعيد، وأبي هريرة في صحيح البخاري.

الموضع الثاني: في الجنة، ويكون نعيمهم بقدر رؤيتهم لربهم؛ فأعظمهم نعيمًا من يرى ربه في اليوم مرتين، كما جاء في بعض الآثار.

وأنكرت الرافضة والمعتزلة والزيدية والإباضية رؤية الرب ﷻ، واستدلوا بقول الله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وبقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]، والدليلان عليهم لا لهم:

فأمَّا قول الله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، فهو نفي للإدراك، ونفي الإدراك لا يلزم منه نفي الرؤية؛ لأن معنى الإدراك: الإحاطة، والله ﷻ لا يمكن أن يُحَاط به، ومما يدل على أن نفي الإدراك لا يلزم منه نفي الرؤية ما ذكر الله ﷻ في قصة موسى مع فرعون: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، فقد حصلت الرؤية ولم يحصل الإدراك.

والدليل على ذلك من الحس، أنك تنظر إلى الجبل، أو القمر، ولا تدرك تفاصيله؛ لا ترى من الجبل إلا صورته، ولا تحيط علمًا بما فيه من أشجار وأحجار ومخلوقات وحشرات وطيور وغير ذلك، مما يكون فيه، وتنظر إلى صورة القمر ولا يحصل لك إدراك وإحاطة بتضاعيفه، وما يحتويه.

وأما نفي الرب ﷻ الرؤية عن موسى بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، فإن النفي هنا ليس مؤبدًا، وإنما نفي للرؤية في الدنيا. و(لن) لا تدل بالضرورة على النفي المؤبد؛ كقول الإنسان مثلًا: لن أذهب اليوم إلى البر، وقد يذهب غدًا، ولهذا، قال ابن مالك رحمه الله:

ومـن رأى الـنَّـفْـيَ بِـلَـنْ مُـؤَبَّـدًا   فـقـولـه اردد وسـواه فَـاعْـضُـدَا

والصحيح أنه لا أحد رأى الله ﷻ من البشر، ولا النبي ﷺ، وإن كانت هذه المسألة مما اختلف فيه أهل السُّنَّة أنفسهم؛ بل اختلف فيها الصحابة.

عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ، ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْظِرِينِي، وَلَا تُعْجِلِينِي، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾؟ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ**»، فَقَالَتْ: أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]؟ أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[1]؟

ولما سأل أبو ذر نبيّنا ﷺ فقال: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»، وفي رواية قال: «**رَأَيْتُ نُورًا**»[2]، وهذا النور الذي رآه هو الحجاب، كما جاء في الحديث: «**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[3]، تبارك ربنا وتعالى، ولكن الله ﷻ يَهَبُ المؤمنين يوم القيامة قوة تمكنهم من رؤيته سبحانه، والتنعم والتلذذ بالنظر إلى وجهه الكريم.

قوله: (وهي الَّتِي أَهْبَطَ منها آدَمَ نبيَّه وخليفَتَه إلى أَرضِه، بِما سَبَقَ فِي سابِقِ عِلمِه): في هذا إشارة إلى مسألة خلافية: هل الجنة التي أُهبط منها آدم

(١) أخرجه مسلم رقم (١٧٧).
(٢) أخرجه مسلم رقم (١٧٨).
(٣) أخرجه مسلم رقم (١٧٩).

هي الجنة التي يدخلها المؤمنون أم أنها جنة أخرى؟ وظاهر النصوص يدل على أنها هي الجنة الموعودة، والتعبير بالجنة في القرآن يأتي على معنىً واحد.

وقد أنشد ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، في ميميته أبياتًا جميلة يقول فيها:

فَحَيَّ على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المُخَيَّمُ
ولكننا سَبْيُ العدو فهل تُرَى ... نُرَدُّ إلى أوطاننا وَنُسَلَّمُ
وقد زعموا أن الغريب إذَا نَأَى ... وشَطَّتْ به أوطانه فهْو مُغْرَمُ
وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... أضحت لها الأعداء فينا تحكم

قوله: (وخَلَق النَّارَ فأعَدَّها دَارَ خُلُود لِمَن كَفَرَ به، وألْحَدَ في آياتِه وكتُبه ورُسُلِه، وجَعَلَهم مَحجُوبِين عن رُؤيَتِه): **الإلحاد لغةً**: الميل. ومنه سمي لحد القبر؛ لأنه ميل عن سمت الحفر نحو القبلة. **واصطلاحًا**: الميل عما يجب اعتقاده أو عمله. الإلحاد المذكور في كتاب الله **نوعان**:

النوع الأول: **الإلحاد في أسمائه وصفاته**: وهو الميل بها عمَّا يجب اعتقاده، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وهو أنواع، **منها**:

ـ **تسمية الله** عَزَّوَجَلَّ **بما لم يسمِّ به نفسه**: فإن أسماء الله تعالى توقيفية؛ أي: نقف فيها عند موارد النصوص لا نتعداها؛ كتسمية النصارى له: الأب، يقولون: الآب والابن والروح القدس، إلٰهٌ واحد؛ تعالى الله عما يقولون. وتسمية الفلاسفة إياه: «العِلَّةُ الفاعلة»، أو: «العقل الفعَّال».

ـ **أن يشتق منها أسماء للأصنام**: كما فعل المشركون؛ فقد سموا بعض آلهتهم بأسماء مؤنثة من أسماء الله، فسموا: اللَّات، من الإلٰه، والعزى، من العزيز، ومناة، من المنان.

ـ **جحدها وتعطيلها**: كما فعل الجهمية حينما أنكروا أسماء الله، والمعتزلة حين أنكروا صفاته.

ـ **اعتقاد أنها دالة على التمثيل**: كأن يعتقد أن اسم الله السميع يقتضي

أن له سمعًا كسمع المخلوق، وأن اسم الله البصير يقتضي أن له بصرًا كبصر المخلوق.

النوع الثاني: الإلحاد في آياته: قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ [فصلت: ٤٠]، وآيات الله **نوعان**:

- **آيات كونية**: وهي ما بثه الله في هذا الكون من الأجرام السماوية، والمخلوقات الأرضية. ويكون الإلحاد فيها بنسبتها إلى غير الله؛ خلقًا وتدبيرًا، كما يقول بعض الناس: أبدعت الطبيعة كذا وكذا، غضبت الطبيعة! ومذهب الطبائعيين مذهب فلسفي قديم، ونجد، وللأسف، هذا الضرب من الإلحاد يتسلل إلى ألسنة بعض المتحدثين من الصحفيين والإعلاميين وأقلامهم، حين يصفون بعض المشاهد أو الكوارث. وهذه التعبيرات سرت إلى المسلمين عبر الترجمات لأدبيات اليهود والنصارى والذين لا يعلمون.

- **آيات شرعية**: وهي ما أنزله الله على نبيِّه في كتابه. فيكون الإلحاد فيها بتحريفها، وترك العمل بها، والطعن في حكمها ومقاصدها. كمناداة بعضهم بالمساواة بين الذكر والأنثى في الميراث، والزعم أن إقامة الحدود فظاظة وقسوة! فهذا إلحاد في آيات الله الشرعية.

والإلحاد في الرسل: يكون بتكذيبهم، أو نسبة الباطل إليهم مما يُنَزَّهُونَ عنه.



القيامة الكبرى

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وأنَّ الله تبارك وتعالى يَجيءُ يومَ القيامَةِ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا؛ لِعَرْضِ الأُمَم وَحِسَابِهَا وعقُوبَتِها وثَوابها، وتُوضَعُ الموازِينُ لَوَزْنِ أَعْمَالِ العِبَادِ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾، ويُؤْتَوْنَ صَحائِفهم بأعمَالِهم، فمَن أُوتِي كتابَه بيمينه فسوف يُحاسَبُ حِسابًا يَسيرًا، ومَن أُوتِي كتابَه وراء ظَهْرِه فأولئك يَصْلَوْنَ سَعيرًا.

وأنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ، يَجُوزُه العبادُ بِقَدْرِ أعمالِهم؛ فناجُون مُتفاوِتُون في سُرعَة النَّجاةِ عليه مِن نار جَهَنَّم، وقَوْمٌ أَوْبَقَتْهُمْ فيها أعمالُهم.

والإيمانُ بِحَوْض رسولِ الله ﷺ، تَرِدُهُ أمَّتُهُ، لَا يَظْمَأُ مَن شَرب مِنه، ويُذَادُ عنه مَنْ بَدَّلَ وغَيَّرَ).

الشرح

هذه القطعة تتعلق بجملة من أحداث القيامة الكبرى:

❖ أولًا: مجيء الله لفصل القضاء بين العباد:

قوله: (**وأنَّ الله تبارك وتعالى يَجيءُ يومَ القيامَةِ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**): كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]؛ فربنا عَزَّ وَجَلَّ متصف بالمجيء والإتيان اتصافًا يليق بجلاله، لا يشبه مجيء وإتيان المخلوقين. والمجيء والإتيان بمعنى.

وحيثما ذكر المجيء والإتيان في نصوص الكتاب والسُّنَّة فهو على نوعين: مطلق، ومقيد.

- **فإن جاء مطلقًا دل على الصفة**: كما في الآيتين السابقتين.

- **وإن جاء مقيدًا لم يدل على الصفة**: كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، ومعناه: أعطيناهم كتابًا، وكقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]؛ أي: نسفه ودمره.

قوله: (لِعَرْضِ الأُمَمِ وَحِسَابِهَا وعقُوبَتِها وثَوابِها): وذلك أن الناس يبعثون يوم القيامة حفاة عراة غُرْلًا يُسْمِعُهُم الداعي وَيَنْفُذُهُم البصر، ويساقون إلى أرض المحشر؛ أرض وصفها بقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٨]، ووصفها نبيُّه ﷺ بقوله: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ**»، قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ: «**لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ**»[1]؛ لا جبل يرتقى، ولا وادٍ يهبط؛ بل يكونون على مستوى واحد، على أرض ممدودة، يجتمع فيها الخلائق من لدن آدم ﷺ، إلى آخر من يصعق على وجه الأرض. وتحشر معهم البهائم والطيور والحشرات، وسائر المخلوقات؛ فيهم من طوله ستون ذراعًا في السماء كأبينا آدم، وفيهم من مثلنا في الخِلقة، وربما من يكون دون ذلك. قال ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُدْنِيَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْعِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قِيدَ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ**»، قَالَ: «**فَتَصْهَرُهُمُ الشَّمْسُ فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ كَقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقِبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ إِلْجَامًا**». والله على كل شيء قدير.

فيطول المقام بالناس في ذلك الموطن ويطلبون الفكاك، فيقع ما تقدم

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٥٢١). (٢) أخرجه أحمد رقم (٢٣٨١٣).

من أمر الشفاعة، فيجيء الرب لفصل القضاء بين عباده، قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]. وقد جاء في بعض الآثار أن السماء الدنيا تنشق فينزل ملائكتها فيحيطون بأهل الأرض إحاطة السِّوَار بالمعصم، ثم تنشق السماء الثانية فينزل ملائكتها فيحيطون بمن قبلهم، وهكذا كل سماء، ثم ينزل الجبار والملك صفًّا صفًّا.

❁ ثانيًا: نصب الموازين:

قوله: (وتُوضَعُ الموازِينُ لَوَزْنِ أَعْمَالِ العِبَادِ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢]): قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والموازين: جمع ميزان، وهو ميزان حقيقي له لسان وكِفتان، لا كما زعمت المعتزلة أن الميزان هو العدل، هذا من التأويل، ولكن هو ميزان حقيقي يحصل به إقامة العدل.

وهل الذي يوزن العمل، أم العامل، أم صحائف الأعمال؟ كل ذلك جاءت به النصوص:

- **والدليل على أن العامل يوزن**: حديث ابنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**»[1]. فيوزن العامل لإظهار فضله.

- **والدليل على أن صحائف الأعمال توزن**: حديث البطاقة، وهو قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٧٢٩)، ومسلم رقم (٢٧٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا، أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ»[(١)]؛ أي: أنه كان عنده من حسنة التوحيد واليقين الجازم ما ثَقَّلَ موازينه فنجا.

- والدليل على أن الذي يوزن هي الأعمال: فكثير، منها قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. والعبرة بوزن الأعمال.

❁ ثالثًا: نشر الدواوين، والحساب:

قوله: (ويُؤْتَوْنَ صَحائِفهم بأعمَالِهم، فمَن أُوتِي كتابَه بيمينه فسوف يُحاسَبُ حِسابًا يسيرًا، ومَن أُوتِي كتابَه وراء ظَهْرِه فأولئِك يَصْلَوْنَ سَعيرًا). فيها مسألتان:

❁ إحداهما: نشر الدواوين:

الدواوين: جمع ديوان، وهي صحائف الأعمال؛ قال ربنا ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣ ، ١٤]؛ أي: ألزمناه ما

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢/ ٢١٣)، والترمذي رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه رقم (٤٣٠٠)، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٢٥)، والحاكم رقم (٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٧٧٦).

طار من عمله من خير أو شر؛ فكل ما صدر منك من قول أو عمل فقد فارقك، تجده يوم القيامة محضرًا أمامك، مسطورًا منشورًا بين يديك في صحائفك. ولهذا، يقول الكفار يوم القيامة: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]؛ فالمؤمن يُؤتَى كتابه بيمينه، والكافر يُؤتَى كتابه بشماله من وراء ظهره، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ١٢].

الثانية: الحساب:

اقتضت حكمة الله أن يُقيم العدل والحق بين العباد، ولو شاء ﷻ، لأدخل أهل الجنةِ الجنةَ مباشرة، وأهل النارِ النارَ مباشرة، ولا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل، لكن الله ﷻ يريد أن يقيم القسط، ويظهر العدل ويُرِي كل أحد عمله، ويحاسبه عليه.

ومحاسبة الخلائق نوعان:

ـ **أما محاسبة الكفار**: فإنها ليست على سبيل الموازنة بين الحسنات والسيئات؛ لأنهم لا حسنات لهم، قال الله ﷻ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]. عَنْ عَائِشَةَ ﵂، قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «**لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**»[1]، وقال ﷺ: «**حَيْثُمَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ مُشْرِكٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ**»[2]. وإنما يُقَرَّرُونَ بذنوبهم، ويعترفون بها، ويُفضَحُونَ على رؤوس الخلائق، ثم تُغَلُّ

(١) أخرجه مسلم رقم (٢١٤).
(٢) أخرجه ابن ماجه رقم (١٥٧٣).

أيديهم إلى أرجلهم إلى أعناقهم، ثم يُقْذَفُونَ في النار، والنار تقول: هل من مزيد.

- وأما محاسبة المؤمنين: فقد قال ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ**»(١). وهي نوعان: عرض، ومناقشة:

- **أما العرض**: فهو الحساب اليسير الذي دل عليه حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»(٢)، فما أسعده حين يسمع هذه البشارة من الغفور الرحيم!

- وأما المناقشة: فهي التي تقع لبعض عصاة الموحدين، فقد قال نبيُّنا ﷺ: «**مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**»، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، أليس الله تعالى يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنشقاق: ٧، ٨]، قال: «**إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ؛ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**»(٣)، ففَرَّقَ النبي ﷺ بين العرض والمناقشة، فمن دقق معه في الحساب فيما اجترح من كبائر، فإنه يعذب بقدر ذنبه، ومآله إلى الجنة كما تقدم.

رابعًا: الجواز على الصراط:

قوله: (**وأنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ يَجُوزُه العبادُ بِقَدْرِ أعمالِهم، فناجُون مُتفاوِتُون في سُرعَة النَّجاةِ عليه مِن نار جَهَنَّم، وقَوْمٌ أَوْبَقَتْهُمْ فيها أعمالُهم**): الصراط يراد به **أحد معنيين**:

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٥١٢)، ومسلم رقم (١٠١٦).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٦٨٥)، ومسلم رقم (٢٧٦٨).
(٣) أخرجه البخاري رقم (١٠٣)، ومسلم رقم (٢٨٧٦).

الصراط المعنوي: هو دين الإسلام الذي ندعو الله في كل ركعة من ركعات الصلاة أن يهدينا إليه فنقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦].

الصراط الحسي: وهو الجسر المضروب على متن جهنم، يمر عليه الناس على قدر أعمالهم؛ قال الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢]، وهو من أصعب مواقف القيامة، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة الطويل مرفوعًا: «**وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ**»(١). وقد جاءت صفته في بعض الأحاديث: أنه أحد من السيف وأحر من الجمر وأدق من الشعر، ولكن في أسانيدها مقال، لكن ثبت أن النبي ﷺ قال عنه: «**مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ**»(٢).

ويتفاوت الناس في جواز الصراط، بحسب أعمالهم، ففي الصحيح من حديث أبي سعيد الطويل، مرفوعًا: «**ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «**دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**»(٣).

وبين الصراطين تلازم؛ فمن كان مستقيمًا على الصراط المعنوي، استقام على الصراط الحسي، ومن كان مسارعًا في الخيرات مبادرًا للطاعات في الصراط المعنوي، كان سريعًا على الصراط الحسي.

والذين يؤمرون بعبور الصراط هم أهل الإيمان، فينجي الله المتقين، وتخطف الكلاليب أصحاب الكبائر، فتلقيهم في النار، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي

(١) أخرجه مسلم رقم (١٨٢).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٤٤٠)، ومسلم رقم (١٨٢).
(٣) أخرجه مسلم (١٩٥).

ﭐلَّذِينَ ﭐتَّقَواْ وَّنَذَرُ ﭐلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢]. أمَّا الكفار فهم يُقْذَفُون مباشرة في النار. فمن عبر الصراط، نجا، وبلغ موضعًا يقال له: القنطرة. وهي موضع يجتمع عليه من عبر الصراط، ممن سبقت لهم من الله الحسنى، قبل دخول الجنة، فَيُنَقَّوْنَ ويُهَذَّبُونَ، ويتساقطون المظالم فيما بينهم، ويتعافون، وينزع ما في صدورهم من غل، ليكون دخولهم الجنة على أكمل صورة ظاهرة وباطنة. وذلك أنهم يُكْسَوْنَ عند دخول الجنة، وأول من يُكْسَى إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما أخبر نبيّنا ﷺ.

۞ خامسًا: الحوض المورود:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والإيمان بحوض رسول الله ﷺ، تَرِدُهُ أُمَّتُهُ، لَا يَظْمَأُ مَن شَرب مِنه، ويُذَادُ عنه مَنْ بَدَّلَ وغَيَّر**):

الحوض لغة: مجمع الماء. والمقصود هنا الحوض المورود لنبيِّنا ﷺ، في عرصات القيامة. وثبت بالتواتر. وجاءت النصوص بصفته، كما في حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا**»[(١)]، ومن حديث أنس: «**إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِنَ اليَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ**»[(٢)]. ويَصُبُّ فيه مِيزَابَان من نهر الكوثر، وهو النهر الذي أعطاه الله نبيّه ﷺ في الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: ١]، ففي حديث ثوبان: وَسُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ فَقَالَ: «**أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، يَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ يَمُدَّانِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالْآخَرُ مِنْ وَرِقٍ**»[(٣)].

وقال نبيُّنا ﷺ: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ**»، وفَرَطُ القوم: هو من

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٥٧٩)، ومسلم رقم (٢٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٥٨٠)، ومسلم رقم (٢٣٠٣).

(٣) أخرجه مسلم رقم (٢٣٠١).

يسبقهم إلى مَوْرِدِ الماء، ليعده لهم، ويهيئه لهم، ثم يستقبلهم؛ فمن كمال شفقته ﷺ أنه يسبق أمته إلى حوضه، حتى قال له أصحابه: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ؛ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا، مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ**»(١). والغرة: هي البياض الذي يكون في جبهة الفرس، والتحجيل: هو البياض الذي يكون في قوائمها. وهذا يدل على فضل الوضوء. فيسقي النبي ﷺ أُمته، فمن شرب من هذا الحوض شربة واحدة لم يظمأ بعدها أبدًا.

قوله: (ويُذَادُ عنه مَنْ بَدَّلَ وغَيَّرَ): قال ﷺ: «**أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ! فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا**»(٢)، وقال: «**وَلَيُصَدَّنَّ عَنِّي طَائِفَةٌ مِنْكُمْ فَلَا يَصِلُونَ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَصْحَابِي، فَيُجِيبُنِي مَلَكٌ فَيَقُولُ: وَهَلْ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ؟**»(٣).

فإن كان هذا المُحْدِث والمُبَدِّل أحدث وبدَّل في أصل الدين؛ كأن أحدث ردةً، أو بدعة مُكَفِّرَةً، فإنه يذاد عنه ويحرم منه حرمانًا أبديًّا، وربما يُذاد عنه أقوام من أهل القبلة، من باب العقوبة، فلا يشربون من الحوض مع الشاربين، ولا يمنع أن يدخلوا الجنة، كما نص على ذلك الحافظ ابن حجر وغيره(٤).

وهذا يدل على خطر البدعة وأنها مشؤومة العاقبة في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»، وقال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٤٧).
(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٤٩).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٥٧٥)، ومسلم رقم (٢٢٩٧).
(٤) انظر: فتح الباري (١١/ ٤٧٤).
(٥) أخرجه البخاري رقم (٢٦٩٧)، ومسلم رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

مسألة الإيمان

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وأنَّ الإيمانَ قَولٌ باللِّسانِ، وإخلَاصٌ بالقلب، وعَمَلٌ بالجوارِح، يَزيد بزيادَة الأعمالِ، ويَنقُصُ بنَقْصِها، فيكون فيها النَّقصُ وبها الزِّيادَة، ولا يَكْمُلُ قَولُ الإيمانِ إلَّا بالعمل، ولا قَولٌ وعَمَلٌ إلَّا بنِيَّة، ولا قولٌ وعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إلَّا بمُوَافَقَة السُّنَّة):

الشرح

هذه مسألة عظيمة من مسائل الاعتقاد وهي «مسألة الإيمان».

الإيمان لغة: التصديق. قال الله عَزَّوَجَلَّ على لسان إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧]، هكذا يعرفه كثير من الشرَّاح. والصحيح أنه نوع خاص من التصديق؛ لأنه يتضمن معنى الائتمان، فهو تصديق مقرون بقبول ورضى وإقرار وانقياد.

وأما في الاصطلاح: فالإيمان قول وعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، كما قرر المصنف. فانسدل من هذه الجملة خمسة بنود: قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل اللسان، وعمل الجوارح، فكلها مشمولة بمسمى الإيمان.

قول القلب: اعتقاده وتصديقه.

قول اللسان: الاستعلان بالشهادتين.

عمل القلب: ما يتحرك به القلب من الإرادات والنيات؛ كالحب والخوف والرجاء.

عمل اللسان: ما يلهج به اللسان من الذكر والتلاوة والدعاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر الكلم الطيب.

عمل الجوارح: ما تتحرك به الأعضاء من الطاعات العملية؛ كالصلاة والحج وإماطة الأذى عن الطريق والجهاد، ونحو ذلك.

فقول القلب: دلَّ عليه قول النبي ﷺ في حديث جبريل قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١)، ومحل ذلك القلب.

وقول اللسان: دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦**﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»(٢). فمن زعم أنه آمن بقلبه، وأبى أن يقول بلسانه، مع القدرة وعدم العذر، فهو كافر ظاهرًا وباطنًا، باتفاق.

وعمل القلب: دلَّ عليه قول النبي ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ**»(٣)، والحياء من أعمال القلوب.

وعمل اللسان: دلَّ عليه حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»(٤). وقال عمار: (ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ)(٥).

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري رقم (١٣٩٩)، ومسلم رقم (٢٠).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٩)، ومسلم رقم (٣٥).
(٤) أخرجه البخاري رقم (١٢)، ومسلم رقم (٣٩).
(٥) أخرجه البخاري في (باب إفشاء السلام من الإسلام) من (كتاب الإيمان).

وعمل الجوارح: دلَّ عليه قوله تعالى في قصة تحويل القبلة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي: صلاتكم، وقوله ﷺ في ذكر شعب الإيمان: «**وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ**».

وقد بوَّب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في كتاب الإيمان من صحيحه، أبوابًا عدة في ذكر خصال الإيمان القلبية واللسانية والعملية.

۞ وأما المخالفون لأهل السُّنَّة في حقيقة الإيمان، فطوائف شتى، وهم:

١ ـ **الجهمية: (غلاة المرجئة)**: قالوا: الإيمان معرفة القلب. وهو أخبث المذاهب في الإيمان، فإنه يقتضي إيمان المشركين، وأهل الكتاب؛ بل وفرعون وقومه، وإبليس؛ لكونهم عارفين، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: ١٤]، وقال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢]. فلم تغن عنهم هذه المعرفة، وكانوا أكفر الكافرين.

٢ ـ **الكرَّامِيَّة**: قالوا: الإيمان قول اللسان. ويكفي في إبطال دعواهم قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١].

٣ ـ **مرجئة الفقهاء**: (أصحاب حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة النعمان، رحمهما الله): قالوا: الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، ولم يُدخلوا الأعمال في مُسَمَّى الإيمان.

وقد وافق مرجئة الفقهاء، جمهور أهل السُّنَّة في أمور، منها:

- أن لله على عباده أن يطيعوا أمره، ويجتنبوا نهيه.
- أن المطيع محمود في الدنيا، مثاب في الآخرة.

ـ أن العاصي مذموم في الدنيا، مستحق للعقوبة في الآخرة.

ـ أن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن مسمى الإيمان في أحكام الدنيا، وأنه تحت المشيئة في أحكام الآخرة، ولا يخلد في النار.

ـ وجوب إقامة الحدود والتعزيرات، ولزوم الكفارات.

وخالفوا جمهور أهل السُّنَّة في أمور، منها:

ـ إخراجهم العمل عن مسمى الإيمان وحدِّه وتعريفه، وزعمهم أنه من ثمراته وحسب.

ـ إنكارهم لزيادة الإيمان ونقصانه، وأن الإيمان شيء واحد؛ إما أن يوجد كله أو يذهب كله.

ـ إنكارهم لتفاضل المؤمنين في الإيمان، ومساواتهم في الولاية.

ـ منعهم الاستثناء في الإيمان؛ بقول: «أنا مؤمن إن شاء الله».

ـ إنكارهم الكفر القولي والعملي، وزعمهم أن الكفر كفر الجحود والاستحلال فقط.

ويتبين من هذه المقارنة **حقيقتان**:

إحداهما: أن الخلاف بين مرجئة الفقهاء، وجمهور أهل السُّنَّة، يسير؛ فهم متفقون في جملة الأحكام العملية.

الثانية: أن الخلاف بين الفريقين ليس خلافًا «صوريًّا» صرفًا، كما قال ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالِاخْتِلَافُ الَّذِي بَيْنَ أَبِي حَنِيفَةَ وَالْأَئِمَّةِ الْبَاقِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ ـ اخْتِلَافٌ صُورِيٌّ. فَإِنَّ كَوْنَ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ لَازِمَةً لِإِيمَانِ الْقَلْبِ، أَوْ جُزْءًا مِنَ الْإِيمَانِ، مَعَ الِاتِّفَاقِ عَلَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْإِيمَانِ؛ بَلْ هُوَ فِي مَشِيئَةِ اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ ـ: نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ، لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ فَسَادُ اعْتِقَادٍ)[1].

بل منه ما هو صوري لفظي، ومنه ما هو حقيقي معنوي، يفضي إلى ما

(١) شرح الطحاوية، ت. الأرناؤوط (٢/ ٤٦٢)

هو شر منه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وَلِهَذَا، دَخَلَ فِي «إِرْجَاءِ الْفُقَهَاءِ» جَمَاعَةٌ هُمْ عِنْدَ الْأُمَّةِ أَهْلُ عِلْمٍ وَدِينٍ. وَلِهَذَا، لَمْ يُكَفِّرْ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ أَحَدًا مِنْ «مُرْجِئَةِ الْفُقَهَاءِ»؛ بَلْ جَعَلُوا هَذَا مِنْ بِدَعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ؛ لَا مِنْ بِدَعِ الْعَقَائِدِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النِّزَاعِ فِيهَا لَفْظِيٌّ، لَكِنَّ اللَّفْظَ الْمُطَابِقَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ هُوَ الصَّوَابُ، فَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يَقُولَ بِخِلَافِ قَوْلِ اللهِ وَرَسُولِهِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ صَارَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إلَى بِدَعِ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ أَهْلِ الْإِرْجَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَإِلَى ظُهُورِ الْفِسْقِ. فَصَارَ ذَلِكَ الْخَطَأُ الْيَسِيرُ فِي اللَّفْظِ سَبَبًا لِخَطَإٍ عَظِيمٍ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ)(١).

وقد حرر رَحِمَهُ اللهُ، حقيقة الخلاف في ذلك، فقال: (وَقِيلَ لِمَنْ قَالَ: دُخُولُ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ مَجَازٌ نِزَاعُك لَفْظِيٌّ؛ فَإِنَّك إذَا سَلَّمْت أَنَّ هَذِهِ لَوَازِمُ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ الَّذِي فِي الْقَلْبِ وَمُوجِبَاتِهِ، كَانَ عَدَمُ اللَّازِمِ مُوجِبًا لِعَدَمِ الْمَلْزُومِ، فَيَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ هَذَا الظَّاهِرِ عَدَمُ الْبَاطِنِ؛ فَإِذَا اعْتَرَفْت بِهَذَا، كَانَ النِّزَاعُ لَفْظِيًّا، وَإِنْ قُلْت: مَا هُوَ حَقِيقَةُ قَوْلِ جَهْمٍ وَأَتْبَاعِهِ مِنْ أَنَّهُ يَسْتَقِرُّ الْإِيمَانُ التَّامُّ الْوَاجِبُ فِي الْقَلْبِ مَعَ إظْهَارِ مَا هُوَ كُفْرٌ وَتَرْكِ جَمِيعِ الْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ؟ قِيلَ لَك: فَهَذَا يُنَاقِضُ قَوْلَك: إنَّ الظَّاهِرَ لَازِمٌ لَهُ وَمُوجِبٌ لَهُ؛ بَلْ قِيلَ: حَقِيقَةُ قَوْلِك: إنَّ الظَّاهِرَ يُقَارِنُ الْبَاطِنَ تَارَةً وَيُفَارِقُهُ أُخْرَى فَلَيْسَ بِلَازِمِ لَهُ وَلَا مُوجِبٍ وَمَعْلُولٍ لَهُ، وَلَكِنَّهُ دَلِيلٌ إذَا وُجِدَ دَلَّ عَلَى وُجُودِ الْبَاطِنِ وَإِذْ عُدِمَ لَمْ يَدُلَّ عَدَمُهُ عَلَى الْعَدَمِ، وَهَذَا حَقِيقَةُ قَوْلِك)(٢).

وأما ما أحدثه بعض المعاصرين المنتسبين للسلفية، من أن «الأعمال شرط كمال وليست شرط صحة»، فقول لم يسبقوا إليه! والواجب لزوم ما كان عليه السلف الصالح، فإن السلف لم يقولوا هذا، ولم يُعَبِّرُوا به؛ بل ساقوا الكلام في مسمى الإيمان سوقًا واحدًا، ولم يفرقوا بين ركن القول والعمل.

ولعل الذي حمل هؤلاء على هذا الشطط، مقابلة مقالة الخوارج، الذين

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٩٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٧٩).

يكفرون بمطلق الذنوب والأعمال. وأهل السُّنَّة والجماعة يقولون: من ترك العمل بالكلية فليس بمؤمن؛ لأنه أخل بجزء مسمى الإيمان، لا أن من فعل محرمًا زال عنه وصف الإيمان. وفرق بين المقامين.

فالواجب لزوم طريقة السلف، وألَّا يحملنا شنآن قوم على أن نقابل خطأهم بخطأ؛ بل نقابل خطأهم بالصواب، فلا نقابل بدعة الخوارج ببدعة الإرجاء؛ بل نلزم الطريق الوسط، وما كان عليه سلف الأُمة، ونبتعد عن المقالات المحدثة.

٤ ـ **الوعيدية: (الخوارج والمعتزلة)**: قالوا كما قال أهل السُّنَّة: الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، لكنهم أفسدوا ذلك فسادًا بليغًا بإزالتهم مسمى الإيمان عن مرتكب الكبيرة. فأما الخوارج فأخرجوه من الإيمان وأدخلوه في الكفر، وأما المعتزلة فأخرجوه من الإيمان، ولم يدخلوه في الكفر، وجعلوه في منزلة بين منزلتين؛ لا مؤمن ولا كافر، كما تقدم.

قوله: (**يَزيد بزيادَة الأعمالِ، ويَنقُصُ بنَقْصِها، فيكون فيها النَّقصُ وبها الزِّيادَة**): يعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص. واستدلوا بأدلة الكتاب؛ كقول الله ﷻ: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. فهذه ستة مواضع في كتاب الله جرى التصريح فيها بلفظ الزيادة.

والزيادة والنقصان بينهما تلازم عقلي؛ فكل أمر قابل للزيادة فهو قابل للنقصان؛ لأنه قبل أن يزيد كان أنقص منه بعد أن زاد. ولهذا، أجمع السلف على إثبات الزيادة والنقصان. ويروى عن الإمام مالك رحمه الله، أنه قال: (أقول: يزيد، ولا أقول: ينقص)[1]، وعنه رواية أُخرى بموافقة الجماعة. وإنما توقف

---

(١) التمهيد، لابن عبد البر (٩/ ٢٥٢).

في «النقصان» إما مراعاة للفظ القرآن، وإما قطعًا للطريق على الخوارج، لئلا يتخذوا من إثبات النقص حجة لزوال الإيمان كله؛ لقولهم: إذا زال بعضه زال كله. ومع ذلك، فقد جاء ما يدل على النقص، وهو قول النبي ﷺ: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**»(١). ومعلوم أن نقص الدين هو نقص الإيمان.

والصحيح أن زيادة الإيمان ونقصانه ليست مقصورة على زيادة الأعمال ونقصانها، كما يشعر كلام المصنف؛ بل تتعلق بجميع أركانه؛ فإن التصديق يزيد وينقص؛ فخبر الواحد ليس كخبر الاثنين، وخبر الآحاد ليس كالمتواتر، وليس الخبر كالمعاينة في درجة التصديق. ولهذا، كان اليقين درجات: (علم اليقين) و(حق اليقين) و(عين اليقين).

كما يعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أن أهله فيه متفاضلون، فليس إيمان أتقى الناس كإيمان أفجر الناس، ليس إيمان جبرائيل وميكائيل كإيمان واحد من فساق المسلمين، ليس إيمان أبي بكر وعمر كآحاد المسلمين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]. فللإيمان أسباب تزيده، وأسباب تنقصه. ولهذا، يقول أهل السُّنَّة: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما أنه يزيد بالتفكر وينقص بالغفلة.

أما طرفا الضلالة من الوعيدية والمرجئة، فقالوا: الإيمان شيء واحد؛ إما أن يوجد كله، أو يذهب كله! فالمرجئة حققوا الإيمان بأدنى تصديق، والوعيدية أزالوا الإيمان بأدنى كبيرة. فالطرفان متفقان في المقدمة، مختلفان في النتيجة؛ لاختلافهم في الحقيقة والماهية.

قوله: (**ولا يَكْمُلُ قَوْلُ الإيمانِ إلَّا بالعمل، ولا قَوْلٌ وعَمَلٌ إلَّا بنِيَّة، ولا قولٌ وعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إلَّا بمُوَافَقَة السُّنَّة**): هذه أمور متلازمة، لا انفكاك بينها. فحقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، وربما زاد بعض السلف أوصافًا من

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٠٤) واللفظ له، ومسلم رقم (٨٠).

قبيل التأكيد، كما هاهنا. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، أَرَادَ قَوْلَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلَ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ؛ وَمَنْ أَرَادَ الِاعْتِقَادَ رَأَى أَنَّ لَفْظَ الْقَوْلِ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ إِلَّا الْقَوْلُ الظَّاهِرُ، أَوْ خَافَ ذَلِكَ، فَزَادَ: الِاعْتِقَادَ بِالْقَلْبِ. وَمَنْ قَالَ: قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ قَالَ: الْقَوْلُ يَتَنَاوَلُ الِاعْتِقَادَ وَقَوْلَ اللِّسَانِ، وَأَمَّا الْعَمَلُ فَقَدْ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ النِّيَّةُ، فَزَادَ ذَلِكَ. وَمَنْ زَادَ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ، فَلِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَكُونُ مَحْبُوبًا للهِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ. وَأُولَئِكَ لَمْ يُرِيدُوا كُلَّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، إِنَّمَا أَرَادُوا مَا كَانَ مَشْرُوعًا مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَلَكِنْ كَانَ مَقْصُودُهُمْ الرَّدَّ عَلَى الْمُرْجِئَةِ، الَّذِينَ جَعَلُوهُ قَوْلًا فَقَطْ، فَقَالُوا: بَلْ هُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ. وَالَّذِينَ جَعَلُوهُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، فَسَّرُوا مُرَادَهُمْ؛ كَمَا سُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التستري عَنْ الْإِيمَانِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ وَسُنَّةٌ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ إِذَا كَانَ قَوْلًا بِلَا عَمَلٍ فَهُوَ كُفْرٌ، وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا بِلَا نِيَّةٍ فَهُوَ نِفَاقٌ، وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا وَنِيَّةً بِلَا سُنَّةٍ فَهُوَ بِدْعَةٌ)(١).

والفرق بين الإسلام والإيمان: أن معناهما واحد إذا ورد كل منهما منفردًا؛ فإنه يدل على الدين كله، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وأما إذا جمعهما نص واحد، فإن الإسلام هو الأعمال الظاهرة، والإيمان هو العقائد الباطنة. وهذا معنى قول العلماء في التفريق بين الإسلام والإيمان: «إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا».

ومما يدل على الفرق بين الإسلام والإيمان، في حال الاقتران، حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه سأل النبي ﷺ أولًا عن الإسلام ففسره بالأعمال الظاهرة، فقال: «**الْإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ**

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧١).

الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[(١)]؛ ففسر الإيمان بالعقائد الباطنة.

ومن شواهد الاقتران قول الله ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، لم يُرِدِ الله ﷻ أنهم كانوا كافرين، أو منافقين، كما ذهب إلى هذا بعض المفسرين، لكن أراد أنَّ بَشَاشَةَ الإيمان وحلاوته لم تخالط قلوبهم بعد، وإن كان وقع منهم الاستسلام الظاهر، فلذلك، أثبت لهم الإسلام ونفى عنهم الإيمان الواجب، أو الكامل، وأشار إلى أنهم في سبيل دخوله، حيث قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾.

ومن شواهد ذلك قول الله ﷻ في قصة آل لوط: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، فالمخْرَجُونَ مؤمنون، وهم لوط وابنتاه، أما البيت بمجمله، فإنه يضم امرأة لوط وكانت أشبه ما تكون بالمنافق، تظهر للوط الموافقة ولكنها على طريقة قومها، فلذلك، سمى الله البيت بيت مسلمين؛ لأن قيمه لوطٌ عليه السلام، وأكثر أهله مسلمين.

فعند اقترانهما فالإيمان أخص من الإسلام، ثم الإحسان أخص من الإيمان، فلذلك نقول: كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، ونقول أيضًا: كل محسن مؤمن، وليس كل مؤمن محسنًا؛ لأن الإحسان درجة ثالثة أخص وأعلى من سابقتيه، وهو «**أن يَعْبُدَ الله كأنك تراه**»، وهذه عبادة الطَّلب، «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» وتلك عبادة الهرب. وهذا أخص من مطلق الإيمان.

قوله: (وأنَّه لا يَكفرُ أَحدٌ بذَنبٍ مِنْ أهْل القِبْلَة): أهل القبلة: هم المنتسبون للإسلام، الذين يُصَلُّونَ إلى جهة القبلة، فالأصل فيهم بقاء اسم الإسلام، حتى يقوم دليل على زواله.

ومسألة التكفير مسألة عظيمة خطيرة، وهي مزلة أقدام، ومضلة أفهام،

(١) أخرجه مسلم رقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إلا من عصمه الله بالعلم والتقوى. وَلَأَنْ يخطأ الإنسان في إبقاء وصف الإسلام على من ليس بمسلم، أهون من أن يُخرج مسلمًا عن حد الإسلام. فالخطأ في التكفير أعظم من الخطأ في ضده. فلا بد من التَّوَقِّي والتأني والتَّبَصُّرِ عند إطلاق هذا الحكم.

ولا شك أن ثَمَّ نواقض للإيمان؛ اعتقادية، وقولية، وعملية، تخرج صاحبها عن حد الإيمان وتنقله إلى الكفر. فكما أن الإيمان يتعلق بالاعتقاد والقول والعمل، فالكفر يتعلق بها كذلك. لكن هذه المكفرات ليست من قبيل الذنوب والكبائر، وإنما هي اعتقادات باطلة؛ كالتثليث، أو أقوال بائرة؛ كدعاء غير الله، أو أعمال ناقضة لحقيقة الإيمان لا تجامعه بحال؛ كالسجود لغير الله، والذبح لغير الله، والنذر لغير الله. ولا يحقق الكفر على القائل أو الفاعل إلا بتوفر شروط وانتفاء موانع؛ فربما قال مقالة الكفر، ولا يكون كافرًا، وربما عمل الكفر ولا يكون بها كافرًا؛ لقيام عذر مانع.

مثال ذلك في الاعتقاد: حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ كَانَ سَلَفَ، أَوْ قَبْلَكُمْ، آتَاهُ اللهُ مَالًا وَوَلَدًا؛ يَعْنِي: أَعْطَاهُ، قَالَ: فَلَمَّا حُضِرَ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللهِ خَيْرًا ـ فَسَّرَهَا قَتَادَةُ: لَمْ يَدَّخِرْ ـ وَإِنْ يَقْدَمْ عَلَى اللهِ يُعَذِّبْهُ، فَانْظُرُوا فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي ـ أَوْ قَالَ: فَاسْهَكُونِي ـ ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا، فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ـ وَرَبِّي ـ فَفَعَلُوا، فَقَالَ اللهُ: كُنْ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيْ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ ـ أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ ـ فَمَا تَلَافَاهُ أَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ)(١). والشك في القدرة كفر، غير أنه غلبه الخوف، وأفقده أهلية النظر.

ومثال ذلك في الأقوال: الرجل الذي قال للنبي ﷺ: ما شاء الله

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٤٨١)، ومسلم رقم (٢٧٥٧).

وشئت، فقال له النبي ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي واللهَ عَدْلًا؛ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[(١)]، ومن المعلوم أن جعل الند لله كفر، لكن النبي ﷺ لم يُكفِّرْ هذا القائل بمقالته تلك؛ لأن ذلك صدر منه جهلًا.

ومثال ذلك في الأعمال: أنه ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ فَقَالَ: «**مَا هَذِهِ الْحَلْقَةُ؟**» قَالَ: هَذِهِ مِنَ الْوَاهِنَةِ، قَالَ: «**انْزِعْهَا فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا**»[(٢)]، فلم يُكَفِّرْهُ النبي ﷺ لمجرد عمله بسبب الجهل.

فإذَا قام مانع من الموانع كالجهل والإكراه والنسيان، فإنه يمنع من تحقيق الكفر على قائل الكفر، أو فاعله. فيجب التَّرَيُّثُ في الأمر وعدم التسرع فيه؛ فإن التسرع في إطلاق التكفير له عواقب وخيمة؛ يؤدي إلى سفك الدماء، وإثارة الفتن. وهذا ما وقع من الخوارج في أول الإسلام، فإنهم هان عليهم تكفير المسلمين، فأدى بهم إلى استحلال دمائهم وأموالهم.

ومراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بكلمة **(ذنب)** الكبائر، وليس المراد أن الإنسان مهما عمل من عمل لا يمكن أن يكون كافرًا، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦]، وجاء في سبب نزول هذه الآية أن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، آذته قريش وفتنته، حتى إنهم كانوا يغمسون رأسه في الماء ويخرجونه، ويريدونه أن يسب النبي ﷺ، فأجابهم إلى بعض ما قالوا، فأتى النبي ﷺ حزينًا وقال: يا رسول الله! هلكت، قال: «**مَا أَهْلَكَكَ؟**» قال: أجبتهم إلى ما طلبوا، فذكرتك بسوء، فقال: «**كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟**» قال: مطمئن بالإيمان، قال: «**إِنْ عَادُوا فَعُدْ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٣/ ٣٣٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٦٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه رقم (٣٥٣١)، وحسنه بعض أهل العلم.

(٣) أخرجه الحاكم رقم (٢/ ٣٨٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» رقم (٨/ ٢٠٨)، والنسائي في «السنن الصغرى» رقم (٧/ ٩٥).

لكن اختلفوا في **حكم تارك الصلاة** إذا كان مقرًّا بوجوبها ولكن تركها تهاونًا وكسلًا.

فذهب الأئمة الثلاثة: مالك والشافعي وأبو حنيفة، إلى أن تارك الصلاة تهاونًا وكسلًا لا يكفر بذلك، إلا إنه عندهم قد ارتكب كبيرة من أعظم الكبائر؛ أعظم من الزنا واللواط والربا، لكن لم يبلغوا به حد الكفر، وذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، وجمع من السلف المتقدمين إلى أن ترك الصلاة كفر، واستدلوا بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١]، فمن لم يأت بذلك فليس أخًا لنا في الدين، فإن قال قائل: فما بال الزكاة؟ فالجواب: أن الزكاة خُصت بالحديث المشهور في ذكر صاحب الإبل والبقر والغنم والذهب والفضة، الذين لا يؤدون زكاتها، وما يقع عليهم من العقوبة، ثم قال: «**ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**»[(١)]، فعلمنا من هذا أن تارك الزكاة لا يكفر؛ لأنه لو كفر، ما رأى سبيله إلى الجنة. فَخُصت الزكاة، وأُخرجت من العموم بهذا الدليل، وبقيت الصلاة على الحكم الأول المفهوم من قوله: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾، فمن لم يأتِ بها فليس أخًا لنا في الدين.

كما استدل القائلون بكفر تارك الصلاة بدليل مركّب من دليلين، وهو أن الصحابة رضوان الله عليهم لمَّا ذكر لهم النبي ﷺ، أنهم سيلي عليهم أمراء يعرفون منهم وينكرون فقالوا: يا رسول الله أفلا ننابذهم؟ أفلا نخرج عليهم؟ قال في جواب له: «**وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ**»، قَالَ: «**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**»[(٢)]، وقال في جواب آخر: «**لَا، مَا صَلَّوْا**»[(٣)]؛ فبالجمع بين الحديثين يُفهم أن ترك الصلاة يُعد كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان.

(١) أخرجه مسلم رقم (٩٨٧).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٧١٩٩)، ومسلم رقم (١٧٠٩).
(٣) أخرجه مسلم رقم (١٨٥٤).

ومن أدلتهم: الحديث الذي رواه الإمام مسلم: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**»[١]، وحديث: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»[٢].

فلا شك أن هذا القول تعضده الأدلة الكثيرة الصحيحة، وهو الذي ينبغي أن يُشاع بين المسلمين، وذلك أن كثيرًا من المسلمين إذا قيل له: إن ترك الصلاة لا يبلغ مبلغ الكفر هان عليه الأمر، وفرط في الصلوات. وإذا قيل له: إن ترك الصلاة يخرج عن الملة، ولو تهاونًا وكسلًا؛ فلا تحل ذبيحته، وينفسخ نكاحه، ويفرق بينه وبين زوجته ما لم يتب، وتسقط جميع ولاياته الشرعية، وإذا مات فإنه لا يُغَسَّلُ ولا يُكفن ولا يُدفن في مقابر المسلمين؛ بل يُخرج به إلى البرية ويرمس في حفرة لئلا يتأذى الناس من نتنه، إذا سمع بعض الناس هذه الأحكام المترتبة على هذا في الدنيا، فضلًا عن الحكم الأُخروي؛ وهو أنه خالد مخلد في النار، أوجب لهم نظرًا وتبصرًا وخشية، وتوبة إلى الله ﷻ. ومدار الأمر على الدليل والبرهان، فإذا صح الدليل والاستدلال، فليقل به بصرف النظر عن النتائج المترتبة عليه.

قوله: (وأنَّ الشُّهداءَ أحياءٌ عند ربِّهم يُرْزَقونَ).

الشهداء جمع شهيد، وهو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فقتل في سبيل الله. فعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[٣].

والشهداء من خيار طبقات الأمة المنعم عليهم، قال الله ﷻ: ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩**﴾ [النساء: ٦٩]. ومنزلة الشهيد منزلة عظيمة، فإنه تُكَفَّرُ جميع سيئاته

(١) أخرجه مسلم رقم (٨٢).
(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٦٢١)، والنسائي رقم (٤٦٣)، وابن ماجه رقم (١٠٧٩)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» رقم (٥٧٤).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٨١٠)، ومسلم رقم (١٩٠٤).

مع أول قطرة من دمه، ثم إنه لا يموت؛ فقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١]، وأخبر نبيّنا ﷺ أن: «**أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ فِي أَيِّ الْجَنَّةِ شَاؤوا**»[١]، والأحاديث في فضل الشهادة كثيرة.

ولا يجوز إطلاق وصف الشهيد على معيَّن؛ بأن يُقال: فلانٌ شهيد، إلا من شهد له النبي ﷺ، ولكن يقال لمن يُحسن الظن به: تُرجى له الشهادة، أو: يُرجى أن يكون من الشهداء، ولا يقطع له بذلك؛ لأن من حكم له بالشهادة فقد حكم له أنه من أهل الجنة، ولا يجوز القطع لمعيّن بجنة ولا نار، إلا لمن شهد له النبي ﷺ بذلك. عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَعْظَمِ المُسْلِمِينَ غَنَاءً عَنِ المُسْلِمِينَ، فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا**»، فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الحَالِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَى المُشْرِكِينَ، حَتَّى جُرِحَ، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَجَعَلَ ذُبَابَةَ سَيْفِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مُسْرِعًا، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قَالَ: قُلْتَ لِفُلَانٍ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهِ**»، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِنَا غَنَاءً عَنِ المُسْلِمِينَ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا جُرِحَ اسْتَعْجَلَ المَوْتَ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٨٨٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٦٠٧)، ومسلم رقم (١١٢).

البرزخ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وأرْواحُ أهْلِ السَّعادَةِ باقِيةٌ ناعِمةٌ إلى يوم يُبْعَثون، وأرواحُ أهلِ الشَّقاوَةِ مُعَذَّبَةٌ إلى يَوم الدِّين. وأنَّ المؤمنِينَ يُفْتَنُونَ في قُبُورِهم ويُسْأَلُون، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾).

الشرح

في هذه القطعة إشارة إلى دار البرزخ؛ فإن الدور ثلاثة: دار الدنيا، ودار الآخرة، وبينهما البرزخ، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. **والبرزخ في اللغة**: الحاجز بين الشيئين، قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠]. فدار البرزخ هي التي تكون بعد الموت.

وقد تقدم الكلام على الإيمان باليوم الآخر، وأن أول مراتبه الإيمان بما يكون في القبر، وهما أمران: فتنة القبر، وعذاب القبر أو نعيمه.

١ ـ **فتنة القبر**: الفتنة لغةً: الاختبار، من قولهم: «فتن الصائغ الذهب» إذا أدخله في الأتُّون ليخلِّصه من الشوائب. **واصطلاحًا**: سؤال الملكين للإنسان عن ربه ونبيّه ودينه. عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، قَالَ: «**نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ** ﷺ، **فَذَلِكَ قَوْلُهُ** عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾»[(١)].

٢ ـ **عذاب القبر ونعيمه**: دلَّ عليه ناطق الكتاب، وصحيح السُّنَّة:

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، فهذا عذاب يسبق دخولهم النار.

واستدل الإمام أبو بكر الإسماعيلي صاحب المستخرج في عقيدته المختصرة بقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]، فقال: (بيَّن أن المعيشة الضنك قبل يوم القيامة، وفي معاينتنا اليهود والنصارى والمشركين في العيش الرغد، والرفاهية في المعيشة، ما يعلم به أنه لم يرد به ضيق الرزق في الحياة الدنيا؛ لوجود مشركين في سعة من أرزاقهم، وإنما أراد به بعد الموت، قبل الحشر)[(٢)].

واستدل ابن عباس بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]، استدل بها على ثبوت عذاب القبر[(٣)].

ومن أدلة السُّنَّة: قول النبي ﷺ: «**أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ** ـ أَوْ: **قَرِيبَ**، لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ ـ **مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، يُقَالُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ** ـ أَوِ: **المُوقِنُ** لَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ ـ **فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالهُدَى، فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا، هُوَ مُحَمَّدٌ ثَلَاثًا، فَيُقَالُ: نَمْ صَالِحًا قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ. وَأَمَّا المُنَافِقُ**، أَوِ: **المُرْتَابُ** ـ لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ ـ **فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ**»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨٧١).
(٢) اعتقاد أئمة الحديث (٧٠).
(٣) الروح، لابن القيم (٧٥).
(٤) أخرجه البخاري رقم (٨٦)، ومسلم رقم (٩٠٥).

وعن أنس بن مالك، قال: قال نبي الله ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ، إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ**» قَالَ: «**يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ قَالَ: فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ. قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ**». قَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «**فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا**»، قَالَ قَتَادَةُ: وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا، إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[(١)].

وعن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: «**وَإِنَّ الْكَافِرَ**»، فَذَكَرَ مَوْتَهُ قَالَ: «**وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ**» قَالَ: «**فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا**»، قَالَ: «**وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ**»[(٢)].

وفي المسند عن البراء، قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ. فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي**»، وأخبر النبي ﷺ قال: «**فَيَتَّسِعُ لَهُ مَدَّ بَصَرِهِ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ**». وقال عن الكافر: «**وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ! هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ. فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨٧٠).
(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٧٥٣).
(٣) أخرجه أحمد رقم (٤/٢٨٧)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح.

وعن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ، عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ ـ قَالَ: كَذَا كَانَ يَقُولُ الْجُرَيْرِيُّ ـ فَقَالَ: «**مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبُرِ؟**» فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، قَالَ: «**فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟**»، قَالَ: مَاتُوا فِي الْإِشْرَاكِ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**»، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ**»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، قَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ[(١)].

وسمع النبي ﷺ مرة جَلَبَةً ففزع، فسألته عائشة رضي الله عنها، فقال النبي ﷺ: «**يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا**»[(٢)].

وعذاب القبر نوعان: دائم ومنقطع. فأما العذاب الدائم فهو للكفار، يعذبون في قبورهم حتى تقوم الساعة. وأما العذاب المنقطع فإنه يقع لبعض عصاة الموحدين، الذين ابتلوا بشيء من هذه القاذورات، فيجعل الله عز وجل عذاب القبر مُغنيًا لهم عن عذاب الآخرة.

ومما يدل على ذلك حديث ابن عمر، أن النبي ﷺ، مَرَّ على قبرين، فقال: «**أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨٦٧)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري رقم (١٣٧٥)، ومسلم رقم (٢٨٦٩)، من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري رقم (٢١٦)، ومسلم رقم (٢٩٢).

والصحيح الذي دلت عليه النصوص أن عذاب القبر يقع أحيانًا على الروح والجسد معًا، وأحيانًا على الروح وحدها. ففي الحديث أنه يُضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، وأنه يضرب بِمَرْزَبَةٍ من حديد، وذلك يدل على وقوعه على الجسد. فإن قال قائل: كيف هذا؟ فالجواب: هذا من علم الغيب، وهذه حياة برزخية، لها أحكام تخصها، لا تقاس على أحكام الدنيا، ولا تُعْمَلُ العقول في مثل هذا؛ فإن هذه الأمور إنما يحسها ويجدها الميت وليس الحي، فلا تُعَارَضِ النصوص بمحض العقول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (قال بعضهم: ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلت إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين؛ كالإسماعيلية والنصيرية وسائر القرامطة، من بني عبيد وغيرهم، الذين بأرض مصر والشام وغيرهما؛ فإن أهل الخيل يقصدون قبورهم لذلك كما يقصدون قبور اليهود والنصارى. والجهال تظن أنهم من ذرية فاطمة، وأنهم من أولياء الله، وإنما هو من هذا القبيل. فقد قيل: إن الخيل إذا سمعت عذاب القبر حصلت لها من الحرارة ما يذهب بالمغل)[1].



(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٧)، وذكره ابن القيم في كتابه الروح (٥٣).

الإيمان بالملائكة

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (وأنَّ على العباد حَفَظَةً يَكتُبون أعمالَهم، ولا يَسقُطُ شيْءٌ مِن ذلك عَن عِلمِ ربِّهِم وأنَّ مَلَكَ الموتِ يقيضُ الأرواحَ بإذن ربِّه).

الشرح

هؤلاء «الحفظة» طائفة من الملائكة الموكلين ببني آدم. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، وقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨]. وكتابتهم لإقامة الحجة على العاصين، وحفظ طاعة الطائعين، وإلا، فإن علم الله محيط بكل شيء، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠]. وفي الملائكة الكرام حفظة لبني آدم مما يصيبهم، إلا بإذن الله، وهم «المعقبات»، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

قوله: (وأنَّ مَلَكَ الموتِ يَقْبِضُ الأرواحَ بإذن ربِّه): قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، ومعه أعوان من الملائكة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام: ٦١]، وكل ذلك بتدبير الله، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. فلا تعارض بحمد الله.

وفي المتفق عليه: «**أن الله تعالى أَرْسَلَ مَلَكَ المَوْتِ إِلَى مُوسَى** عليه السلام، **فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ المَوْتَ، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ، فَقُلْ لَهُ: يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَهُ بِكُلِّ مَا غَطَّتْ بِهِ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ، قَالَ: أَيْ رَبِّ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ المَوْتُ، قَالَ: فَالْآنَ، فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ**»، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلَوْ كُنْتُ ثَمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ، إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ، عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ**»[1].

والإيمان بالملائكة من أصول الإيمان، كما تقدم. ولا يتم الإيمان بالملائكة إلا **بأربعة أمور**:

الأمر الأول: الإيمان بوجودهم: وأنهم خلق حقيقي من خلق الله، خلقهم الله من نور، وليسوا قوى معنوية كما ذهب إلى هذا بعض المبطلين، فزعموا أن المقصود بهم قوى الخير في الكون، ومثَّل بحبوب اللقاح، والبكتريا النافعة! وهذا تحريف شنيع مصادم للنصوص. عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**»[2]. فهم خلق حقيقي كالجان وبني الإنسان، لكن مادة خلقهم من نور.

وملائكة الرحمٰن كثر لا يحصيهم إلا خالقهم سبحانه وتعالى، حتى قال النبي ﷺ عن البيت المعمور، وهو الكعبة السماوية، بإزاء الكعبة الأرضية: «**فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، فَإِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا**»[3]؛ لكثرة ملائكة الرحمٰن.

الأمر الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه، ومن لم نعلم اسمه نؤمن به إجمالًا: والذي بلغه علمنا بأسمائهم عشرة: جبريل، وميكائيل،

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٣٣٩)، ومسلم رقم (٢٣٧٢).
(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٩٩٦).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٤٩)، ومسلم رقم (١٦٢).

وإسرافيل، وملك الموت، وهاروت، وماروت، ومالك، ورضوان، ومنكر، ونكير. وأما التسمية بعزرائيل، فلم تثبت بدليل صحيح؛ بل هي من الإسرائيليات. وقد سماه الله: «مَلَكُ الْمَوْتِ».

الأمر الثالث: الإيمان بما أخبرنا الله تعالى من أوصافهم: لأنهم عالم غيبي، لا تدركهم حواسنا، فلا سبيل لنا لصفتهم إلا بخبر الله ورسوله، قال الله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، حتى إن نبينا ﷺ رأى جبريل ﵇، على صفته التي خلقه الله عليها؛ له ستمائة جناح قد سد الأفق. وقال ﷺ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ**»[(١)]. فهم خلق عظيم، ذوو أشكال حسنة، كما قال تعالى عن جبريل ﵇: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم: ٦]. وهكذا فطر الله العباد على اعتقاد حسنهم، حتى قالت النسوة لما رأين يوسف ﵇: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: ٣١]. وما سوى ذلك من الخيالات لا يجوز الخوض فيه، كما يوجد في كنائس النصارى وكاتدرائياتهم ولوحاتهم من تصاوير مزعومة.

الأمر الرابع: الإيمان بما أخبرنا الله تعالى من أعمالهم ووظائفهم: لملائكة الرحمٰن وظيفة عامة مشتركة؛ وهي عبادة الله ﷻ وتسبيحه، قال الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، وقال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۝٣٨﴾ [فصلت: ٣٨]، وقال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾ [الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٦]، وقال عنهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فهم في عبادة دائمة، خلقهم الله ﷻ لطاعته، وأعطاهم القوة على

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٧٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٥٤).

ذلك، قال ﷺ: «**أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ**[١]**، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ. وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**»[٢]، قال أبو ذر رضي الله عنه: لوددت أني شجرة تُعْضَدُ!

ولكن لبعضهم أعمال خاصة؛ **منها**:

- الحياة: وهي وظيفة سادة الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل:

فجبريل: فموكل بحياة القلوب؛ لأنه الذي ينزل بالوحي، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣]، ولذلك كان أشرفهم؛ لأنه موكل بالوحي الذي تحصل به حياة القلوب.

وميكائيل: موكل بحياة النبات؛ لأنه موكل بالقطر؛ أي: المطر.

وإسرافيل: موكل بحياة الأجساد؛ لأنه الذي ينفخ في الصور فتفارق الأرواح الأجساد، وينفخ فيه أخرى فتعود الأرواح للأجساد التي كانت تعمرها في الدنيا.

- الحفظ: حفظ الأعمال، وحفظ الإنسان، كما تقدم.
- من يتسور على الجنين في بطن أمه فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.
- قبض الأرواح: كما تقدم.
- تثبيت المؤمنين ونصرهم، وخذلان الكافرين ودحرهم، قال تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

ومنهم من ذكر الله عز وجل في قوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾﴾ [النازعات: ١ ـ ٥]، من طوائف من الملائكة.

---

(١) والأطيط: هو الصوت المنبعث من الرَّحْلِ إذا ثقل بالراكب.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٣١٢)، وابن ماجه رقم (٤١٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٤٤٩).

الصحابة

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وأنَّ خيْرَ القرون القرنُ الَّذين رَأَوا رسولَ الله ﷺ وآمَنوا به، ثمَّ الَّذين يَلُونَهم ثمَّ الَّذين يَلونَهم. وَأَفْضَلُ الصحابة الخُلَفاءُ الرَّاشدون المَهْديُّون؛ أبو بكر ثمَّ عُمر ثمَّ عُثمان ثمَّ عليٌّ رضي الله عنهم أجمعين، وأن لَا يُذكَرَ أَحَدٌ مِن صحابَةِ الرَّسولِ ﷺ إلَّا بأحْسَن ذِكْرٍ، والإمساك عمَّا شَجَرَ بَينهم، وأنَّهم أحَقُّ النَّاس أن يُلْتَمَسَ لَهم أَحَسَن المخارج، ويُظَنَّ بهم أحْسن المذاهب).

الشرح

عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» ـ قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً[(١)].

والصحابي: من لقي النبي ﷺ في حياته، مؤمنًا به، ومات على ذلك. وبيانه:

(من لقي النبي): فلا بد من اللقيا، ولا يلزم الرؤية؛ لأنه ربما كان أعمى.

(مؤمنًا به): فلو لقيه حال كفره، ثم أسلم بعد ذلك ولم يلقه، لم تثبت له صحبة؛ كما وقع لناس لقوا النبي ﷺ يَعْرِضُ نفسه على القبائل في المَوْسِمِ، ثم لم يدخلوا في الإسلام إلا بعد وفاته، فليسوا في عداد الصحابة.

(في حياته): فمن لقي النبي ﷺ بعد موته فلا يُعد صحابيًّا، وهذا ينطبق

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٦٥١)، ومسلم رقم (٢٥٣٥).

على حالة واحدة؛ وهو: أبو ذؤيب الهذلي، الذي قدم المدينة في اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ ورآه بعيني رأسه مسجًّى، فهذا لا يعد صحابيًّا(١).

(ومات على ذلك): فلو ارتد زال عنه وصف الصحبة، لكن لو ارتد ثم عاد إلى الإسلام عاد له وصف الصحبة؛ كما جرى لطليحة بن خويلد الأسدي.

والواجب تجاه أصحاب النبي ﷺ محبتهم وموالاتهم، وذكر فضائلهم ومناقبهم، ولهذا، لم يزل أهل الإسلام وعلماء الملة يُدَوِّنُونَ في السنن الصحاح كتب المناقب، ويسوقون فيها بالأسانيد عن رسول الله ﷺ ما يتعلق بفضائلهم. قال ﷺ فِي الْأَنْصَارِ: «**لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ**»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن أصول أهل السُّنَّة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ). سلامة القلوب: من الغل، والحقد، والشحناء والبغضاء، وإساءة الظن. وسلامة الألسنة: من السب، والشتم، والقذف، وما شابه.

والأدلة على فضل الصحابة كثيرة جدًّا، منها قول الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقول الله ﷻ في ذكر طبقات المؤمنين: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨، ٩].

(١) أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور، واسمه خويلد بن خالد. أسلم على عهد النبي ﷺ ولم يره، وقدم المدينة يوم وفاته، فشهد السقيفة، وبيعة أبي بكر، والصلاة على النبي ﷺ ودفنه. قال ابن كثير: توفي غازيًا بإفريقية، في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٣/ ٣٥٨)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (١/ ٢٤٥)، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١/ ١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٧٨٣)، ومسلم رقم (٧٥).

وقد اختار الله أصحاب محمد ﷺ، عن علم وحكمة، فهم نُزَّاعُ القبائل؛ بل نُزَّاعُ الأُمم، تجد فيهم صهيبًا الرومي، وبلالًا الحبشي، وسلمانَ الفارسي. وتجد فيهم من قبائل العرب المتنوعة. قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ، خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد، بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيّه)[(١)].

فقد شَرُفُوا برؤية النبي ﷺ، وبالسبق إلى الإسلام، وبالهجرة، وبالنصرة، وبالجهاد في سبيل الله، وبالعلم النافع، والعمل الصالح، حتى قال النبي ﷺ لما وقعت مُلاحَاةَ بين بعض من تأخر إسلامه من الصحابة، وبين عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[(٢)]، فنهى عن مسبة أصحابه رضوان الله عليهم، وأخبر بأن المدَّ من أحدهم، وهو ربع الصاع، أو نصيفه؛ أي: ثمن الصاع، يقابل ثواب نفقة غيره مثل جبل أُحدٍ ذهبًا! بسبب شرف السبق والصحبة. فإذا كان هذا القول يساق لقوم تأخر إسلامهم وصحبتهم، ذبًّا عن قوم تقدم إسلامهم وصحبتهم، فكيف بمن جاء بعدهم! فكيف بقوم ينالون منهم، ويقعون فيهم، ويعدون ذلك دينًا! قاتلهم الله أنى يؤفكون.

وبعد أن ذكر الفضل العام، ذكر الفضل الخاص. فلا شك أن بين الصحابة تفاضل؛ لأنه إذا كان بين أنبياء الله تفاضل؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فكيف بمن دونهم! **فمن أسباب التفاضل الخاص:**

١ ـ **من أنفق من قبل الفتح وقاتل**: أعظم وأفضل ممن أنفق من بعد الفتح وقاتل. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ﴾ [الحديد: ١٠].

(١) أخرجه أحمد رقم (٣٦٠٠).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٦٧٣)، ومسلم رقم (٢٥٤١).

٢ ـ **أهل بدر**: فقد قال النبي ﷺ لعمر، في قصة حاطب بن أبي بلتعة: **«يَا عُمَرُ! وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»**[1]، فلهذا، إذَا كان الصحابي بدريًّا سما قدره.

٣ ـ **أصحاب بيعة الرضوان**: الذين رضي الله عنهم، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال ﷺ: **«لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»**[2].

٤ ـ **المبشرون بالجنة**: وهم عشرة. فعن عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ»**[3]. وأفضل هؤلاء جميعًا الخلفاء الأربعة. وأفضلهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، كما قال المصنف.

أما **مسألة الخلافة** فمحل إجماع عند أهل السُّنَّة والجماعة؛ فالخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ومن نازع في ذلك فهو أضل من حمار أهله؛ كما قال الإمام أحمد. وإنما وقع الخلاف في **مسألة المفاضلة** بين عثمان وعلي رضي الله عنهما. فلأهل السُّنَّة في هذا **ثلاثة مذاهب**:

المذهب الأول: تقديم عثمان على علي.

المذهب الثاني: تقدم علي على عثمان دون قدح بعثمان. ووقع ذلك لبعض التابعين.

المذهب الثالث: التوقف.

ولكن الذي استقر عليه أمر أهل السُّنَّة والجماعة أن ترتيبهم في الفضل

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٠٠٧)، ومسلم رقم (٢٤٩٤).
(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٦٥٥)، والترمذي رقم (٣٨٦٠)، والنسائي في الكبرى رقم (١١٥٠٨)، وأحمد رقم (١٤٧٧٨).
(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣٧٤٧)، وأحمد رقم (١٦٧٥).

كترتيبهم في الخلافة، ولهذا، قال أيوب السختياني: من قَدَّمَ عليًّا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار. أزرى بهم؛ أي: استهجن قولهم؛ لأن المهاجرين والأنصار بايعوا عثمان، وقدموه على علي، فكأن الذي يفضل عليًّا على عثمان يخالف المهاجرين والأنصار.

والتعبير بـ«الخلفاء الراشدين» تعبير نبوي؛ ففي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه المشهور قال: قال ﷺ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[(١)]، ولا شك أن هؤلاء الأربعة يدخلون دخولًا أوليًّا في هذا الوصف. ولكن مدلول الخلافة الراشدة أوسع وأعم، فكل من خلف النبي ﷺ في أمته بالعلم النافع، والعمل الصالح، فهو خليفة راشد؛ كعمر بن عبد العزيز رحمه الله.

قوله: (**وألَّا يُذكَرَ أَحَدٌ مِن صحابَةِ الرَّسولِ ﷺ إلَّا بأحْسَنِ ذِكْرٍ، والإمساك عمَّا شَجَرَ بَينهم، وأنَّهم أحَقُّ النَّاس أن يُلْتَمَسَ لَهم أَحسَن المخارج، ويُظَنَّ بهم أحْسن المذاهب**).

ثَنَّى المصنف بمسألة مهمة، تتعلق فيما شجر بين بعض الصحابة رضوان الله عليهم. وذلك أن الصحابة أو بعضهم، ابتلوا رضوان الله عليهم بالفتن كما أخبر النبي ﷺ، فقد صعد النبي ﷺ يومًا على أُحد، ومعه بعض أصحابه فقال: «**هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟**» قَالُوا: لَا. قَالَ: «**فَإِنِّي لَأَرَى الْفِتَنَ تَقَعُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَوَقْعِ الْقَطْرِ**»[(٢)]. فوقعت الفتنة بعد قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فإن عمر رضي الله عنه، كان بَابًا دونها. فعن حذيفة، قال: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ عُمَرَ، إِذْ قَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الفِتْنَةِ؟ قَالَ: «**فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ**» قَالَ: لَيْسَ عَنْ هَذَا أَسْأَلُكَ، وَلَكِنِ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٦٠٧)، والترمذي رقم (٢٦٧٦).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٠٦٠)، ومسلم رقم (٢٨٨٥).

البَحْرِ، قَالَ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا، قَالَ عُمَرُ: أَيُكْسَرُ البَابُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: بَلْ يُكْسَرُ، قَالَ عُمَرُ: إِذًا لَا يُغْلَقَ أَبَدًا، قُلْتُ: أَجَلْ. قُلْنَا لِحُذَيْفَةَ: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ البَابَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا يَعْلَمُ أَنَّ دُونَ غَدٍ لَيْلَةً، وَذَلِكَ أَنِّي حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ. فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ: مَنِ البَابُ؟ فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: مَنِ البَابُ؟ قَالَ: عُمَرُ[1]، فكان عمر رضي الله عنه سدًّا منيعًا في وجه الفتن.

ثم وَلِيَ بعده أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وسارت الأمور صدرًا من خلافته على حال سواء، حتى بزغ نجم الفتن من قِبَلِ الخوارج الذين ظهروا في الأمصار، فما زالوا يؤلبون الناس، ويحرضونهم على عثمان، ويحشدونهم في المَوْسِمِ، حتى قصدوا المدينة، وحاصروا دار الخليفة، فمنع عثمان الصحابة رضوان الله عليهم من الذب عنه؛ حقنًا لدماء المسلمين، حتى تَسَوَّرَ هؤلاء المعتدون بيته، فقتلوه شهيدًا رضي الله عنه.

وجرت إثرها فتن متلاحقة؛ كوقعة الجَمَلِ، ووقعة صِفِّين، واعتزلها عامة الصحابة، ودخل فيها من دخل عن اجتهاد وحسن نية، وطلب للأصلح، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا. فمنهم مجتهد مصيب ومنهم مجتهد مخطئ.

وقد أخبر النبي ﷺ بوقوع الفتنة، وأن ذلك لا يزيل عنهم وصف الإيمان، فقال ـ وقد رأى الحسن بن علي ـ يومًا: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ يُصْلِحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ**»[2]، فوقعت هذه النبوءة، وأصلح الله تعالى بالحسن بن علي بن أبي طالب بين المسلمين، حيث تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وحقن بذلك دماء المسلمين رضي الله عنه.

قوله: (**والإمساك عمَّا شَجَرَ بَينهم**): قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (تلك دماء طَهَّر الله منها سيوفنا فلنطهر منها ألسنتنا)[3]؛ فلا يجوز للإنسان أن

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٠٩٦).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٧٠٤).
(٣) فتح المغيث، للسخاوي (٣/٩٦).

يتحدث ابتداءً فيما شجر بين الصحابة، ويجعل ذلك فاكهة المجالس، ويتندر به، ويستمتع بروايته، ويستعلن به على الشاشات، ويضخه في الصوتيات، فليس من طريقة أهل السُّنَّة أن يُتحدث في هذه المسائل ابتداءً، ولكن إن قام مبطل مبتدع يقدح فيهم، ويذكر حادثة على غير وجهها، فلا بد أن ينتصب له من أهل الإسلام من يذب عن أصحاب نبيّهم ﷺ. وقد ألَّف ابن العربي المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه: «العواصم من القواصم»، في الذَّبِّ عن أصحاب النبي ﷺ، وردِّ ما يُروى من هذه الآثار التي تُذكر في مساوئهم.

وقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ قولًا بديعًا، وعبَّر بعبارات رائقة في شأن الصحابة، وما روي في مساوئهم، نقلها بطولها؛ لفائدتها: (وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إنَّ هَذِهِ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مساويهم مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحِ مِنْهُ: هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ؛ إمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ إنْ صَدَرَ، حَتَّى إنَّهُ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنْ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لِأَنَّ لَهُمْ مِنْ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ**»، «**وَإِنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ**»، ثُمَّ إذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ أَوْ غُفِرَ لَهُ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوِ اُبْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ. فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ فَكَيْفَ بِالْأُمُورِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ: إنْ أَصَابُوا فَلَهُمْ أَجْرَانِ وَإِنْ أَخْطَؤُوا فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مَغْفُورٌ لَهُمْ؟ ثُمَّ الْقَدْرُ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنْ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَالْهِجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ الْفَضَائِلِ، عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ؛ لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى)[١].

والكذب في تدوين التاريخ من أوسع ما يكون؛ فإن الرافضة عليهم من الله ما يستحقون، تسلطوا على أصحاب النبي ﷺ، وحشوا كتب التواريخ بأنواع الكذب والافتراء؛ كما وقع من أبي مخنف لوط بن يحيى، وهو شيعي مُحترق، من اختلاق القَصَصِ الكاذبة في مساوئ الصحابة، رضوان الله عليهم، فطارت في الآفاق.

قوله: (**وأنَّهم أحَقُّ النَّاس أن يُلْتَمَسَ لَهم أَحَسَن المخارج، ويُظَنَّ بهم أحْسن المذاهب**): هكذا حال المؤمنين، يدعو بعضهم لبعض، ويستغفر بعضهم لبعض؛ قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠]؛ قارن هذا بحال قوم مهنتهم وديدنهم الوقيعة في الصحابة، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسبّ الصحابة، ليس له في مال الفيء نصيب؛ لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾)[٢].

ويقال: لو قيل لليهود: من خير مِلَّتِكُمْ؟ لقالوا: أصحاب موسى، ولو قيل للنصارى: من خير ملتكم؟ لقالوا: أصحاب عيسى، ولو قيل للرافضة: من شر ملتكم؟ لقالوا: أصحاب محمد! نعوذ بالله من الانتكاس والخذلان.

ومن سب الصحابة بإطلاق، فلا شك أنه كافر؛ لأنه أكذب القرآن. ومن سب أحدهم لوصف خَلقي أو خُلقي؛ كأن يصفه بالبخل، أو الجبن، أو الدمامة، فلا يكفر بهذا، ولكنه يعزر لسوء أدبه وبجاحته، وأما إن سبه لدينه ونصرته لمحمد ﷺ فهذا به كفر.

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٤ ـ ١٥٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٣).

الطاعة والجماعة والسبيل

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(والطَّاعَةُ لأئمَّة المسلمين مِن وُلَاة أمورِهم، وعُلمائهم، واتِّباعُ السَّلَفِ الصَّالِح، واقتفاءُ آثارِهم، والاستغفارُ لهم، وتَركُ المراءِ والجِدَالِ في الدِّين، وتَركُ ما أَحْدَثَهُ المُحْدِثُون. وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ نبيِّه، وعلى آله وأزواجِه وذريته، وسلَّم تَسليمًا كثيرًا).

الشرح

توافرت الأدلة على وجوب طاعة ولاة الأمور بالمعروف، وأنه لا ينتظم أمر الأمة إلا بطاعتهم، والاجتماع عليهم، وعدم الخروج عليهم وإن جاروا؛ فقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا**»؛ قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ وَسَلُوا اللهَ حَقَّكُمْ**»(١). و«حقهم»: الطاعة المعروفة؛ دفع الزكاة إليهم إذا طلبوها، والنُّفْرة للجهاد إذا استنفروا الرعية. و«حقكم»: أن يُحَنِّنَهُمْ عليكم، وأن يُصلحهم لكم، فيعدلوا بينكم. ولم يقل: اخرجوا عليهم ونابذوهم. وفي الحديث الآخر أنهم قالوا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف؟ فنهاهم وقال: «**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**»(٢)؛ فذكر النبي ﷺ أربعة قيود، لا يجوز الخروج إلا بتوافرها، **وهي**:

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٦٠٣)، ومسلم رقم (١٨٤٣).
(٢) تقدم تخريجه.

القيد الأول: **(أن تروا)**: الرؤية المحققة: إما بصرية أو علمية؛ فلا يعتمد الإنسان على البلاغات والإشاعات والإذاعات التي يتداولها الناس.

القيد الثاني: **(كفرًا)**: فالفسق لا يبيح الخروج عليهم؛ فلو كان الولي يشرب الخمر، أو يأكل الربا، أو يظلم، أو يغصب، فذلك لا يبيح الخروج عليه؛ لأنه لم يبلغ مبلغ الكفر.

القيد الثالث: **(بواحًا)**: قال الخطابي: أي: ظاهرًا باديًا مستعلنًا، وليس شيئًا خفيًّا، وجاء في بعض الروايات: «براحًا»، وفي بعضها: «صراحًا».

القيد الرابع: **(عندكم فيه من الله برهان)**؛ أي: بيِّنة ودليل قاطع من آية محكمة، أو سُنَّة ثابتة، أنه كفر. أمَّا إذا كان الأمر محتملًا، ومحل نزاع ونظر، وليس محل اتفاق بين العلماء، فإن ذلك لا يعد برهانًا. فلا يحل أن يعتمد على مسألة خلافية لِيُسَوِّغَ الخروج على الولاة.

وثَمَّ قيد خامس دلت عليه عمومات النصوص، ومقاصد الشريعة، وهو القدرة. فلو قُدِّرَ أنه رأى كفرًا بواحًا عنده فيه من الله برهان، ولكن ليس عنده قدرة على الخروج؛ فمن السفه والمجازفة أن يخرج على ذي سلطان؛ لأن ذلك يؤدي إلى خضد شوكة الإسلام، واستئصال أهله. وقد قال الله للمؤمنين في مكة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧].

والشارع الحكيم يتشوف إلى جمع الكلمة وتسكين الناس والبعد عن أسباب الفتن؛ لأن باب الفتن إذا انفتح صعب غلقه، وعم الفساد وطم، كما قيل:

الْحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فَتِيَّةً ... تَسْعَى بِزِينَتِهَا لِكُلِّ جَهُولِ
حَتَّى إِذَا اشْتَعَلَتْ وَشَبَّ ضِرَامُهَا ... وَلَّتْ عَجُوزًا غَيْرَ ذَاتِ حَلِيلِ
شَمْطَاءَ يُنْكَرُ لَوْنُهَا وَتَغَيَّرَتْ ... مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ

كان السلف يتمثلون بهذه الأبيات الثلاثة، يُذكرون أنفسهم بأن الفتن عاقبتها وخيمة. فأول ما تظهر الفتنة يكون لها رونق وزخرف، فتستشرف من استشرفها، ولكن بعد ذلك يعض مثيروها أصابع الندم، ويتمنى من خاض فيها

أن لم يكن مشى فيها ولا درج. فلا بد من التعقل والتأني، والنظر في عواقب الأمور، وتعظيم حرمات المسلمين. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان، إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته)[(١)]، وهذا يُعلم بالاستقراء التاريخي والواقعي.

ولنعتبر بما جرى في بعض بلاد المسلمين من الفتن والفوضى، والتفجير والتدمير، كل هذا جاء مبنيًّا على مقدمات فاسدة، وبضاعة في العلم مُزجاة، روَّجها الشيطان على أصحابها فظنوا أنهم يحسنون صنعًا، فأدى ذلك إلى قتل الأبرياء، والمستأمنين، والمعاهدين، وتدمير الممتلكات بسبب الجهل، وعدم الرَّوِيَّةِ، وعدم البصيرة في الدين، وعدم النظر في العواقب، وعدم رد الأمور إلى أهلها؛ وهم أولوا الأمر من العلماء والأمراء. ولو اعتصموا بنصوص الكتاب والسُّنَّة لعصمهم الله ﷻ، ولكن ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فلذلك، **قال المصنف**: (**والطاعة لأئمة المسلمين؛ من ولاة أمورهم وعلمائهم**).

وولاة أمور المسلمين صنفان: العلماء والأمراء، والأمراء يَؤُولُونَ إلى رأي العلماء؛ لأن العلماء هم الذين يستنبطون الحكم من الشريعة؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]؛ فالواجب على أهل الإسلام أن يرجعوا إلى علمائهم في الأمور الشرعية، وإلى أُمرائهم في الأمور الإجرائية.

۞ وما يأمر به الولاة والأُمراء ثلاثة أقسام:

القسم الأول: **أمرٌ أمرَ الله به ورسوله**: فتجب طاعتهم من **جهتين**:

أولًا: من جهة أن هذا أمر الله ورسوله. قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

(١) منهاج السُّنَّة النبوية (٣/ ٣٩١)، ط. قرطبة.

ثانيًا: من جهة أنه طاعة ولي الأمر، قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]. كما لو أمروا بالصلاة، والزكاة.

القسم الثاني: أمر نهى الله عنه ورسوله: فحينئذ لا سمع ولا طاعة، قال نبينا ﷺ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»(١)، وقال: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»(٢). اللَّهُمَّ إلا أن يكره إكراهًا، أو يُلجأ إلجاءًا، فحينئذ؛ إن كان قلبه مطمئنًا بالإيمان، وهو كاره لهذا الأمر الذي حُمل عليه، فلا إثم عليه.

القسم الثالث: أمر ليس عليه أمر الله ورسوله، وليس عليه نهي الله ورسوله: فالواجب طاعتهم. وغالب هذا النوع ما يتصل بالأمور التنظيمية والمدنية؛ كأنظمة المرور، والتجارة، والمساكن، ونحوها؛ فلا يقولن قائل: هذا حكم بغير ما أنزل الله! فإن هذا من باب «السياسة الشرعية» و«المصالح المرسلة»، ولو لم تُسن هذه الأنظمة والترتيبات لوقع الناس في فوضى وأضر بعضهم ببعض.

قوله: (**واتِّباعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، واقتفاءُ آثارِهم، والاستغفارُ لهم**):

السلف الصالح: خير القرون، واتباعهم واجب، قال ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: ١١٥]، وسبيل المؤمنين هو ما كان عليه السلف الصالح، وكلما بَعُد الزمن عن زمن النبوة زاد الشر. فعَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ، قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنَ الحَجَّاجِ، فَقَالَ: «**اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**»؛ سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ(٣). فهذا فقه الصحابة رضوان الله عليهم، لم يقل لهم: اخرجوا عليه، أو: نابذوه؛ بل قال: اصبروا؛ لأن في هذا الصبر مصالح عظيمة، ودفع مفاسد عظيمة.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٣٤٠)، ومسلم رقم (١٨٤٠).
(٢) أخرجه أحمد رقم (١/ ١٣١)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٣) أخرجه البخاري رقم (٧٠٦٨).

والصبر والطاعة والاجتماع على ولي أمر المسلمين، لا يمنع من نصيحة، ولا أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر؛ بل تؤدى هذه الشرائع باستمرار، ويناصح ولاة أمور المسلمين برفق وحكمة، ونصح وشفقة، ويُبَيَّنُ لهم؛ فإن بعض الامور قد تكون خافية عليهم.

وينبغي أن تكون المناصحة سرًّا؛ ففي «صحيح مسلم» عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قِيلَ لَهُ: أَلَا تَدْخُلُ عَلَى عُثْمَانَ فَتُكَلِّمَهُ؟ فَقَالَ: أَتَرَوْنَ أَنِّي لَا أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ؟ وَاللهِ، لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، مَا دُونَ أَنْ أَفْتَتِحَ أَمْرًا لَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ، وَلَا أَقُولُ لِأَحَدٍ، يَكُونُ عَلَيَّ أَمِيرًا: إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ، بَعْدَمَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**»(١)، فجميع هذه المقاصد الشرعية يؤخذ بها، ويُعمل بها، في وقت واحد. وبذلك، يكون المؤمنون كما وصف النبي ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»(٢)، فالمؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى. أمَّا إذا صار المجتمع فرقًا وأحزابًا، متنافسين، كلٌّ يترصد للآخر، وكلٌّ يَتَحَيَّنُ الفرص لينقض على الآخر، لم يكن مجتمعًا صالحًا، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال ﷺ: «**وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»(٣). فالأمة بجميع أطباقها يجب أن تتعاون وتتعاضد وتترافد وتتناصح فيما بينها، ليصلح المجتمع شيئًا فشيئًا.

قوله: (وتَركُ المراءِ والجِدَالِ في الدِّين): هذا أدب عظيم، ما زال

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٩٨٩).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٤٤٦)، ومسلم رقم (٢٥٨٥).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٠٦٤)، ومسلم رقم (٢٥٦٣).

السلف يتواصون به. فالدين محفوظ بحمد الله، ليس مادة للمراء والجدل، والبحث والنظر، والمتعة الذهنية والعقلية في التصويب والتخطئة. قال تعالى في ذم المشركين: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزخرف: ٥٨]، وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ**»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾[(١)].

وقد كان عمر رضي الله عنه شديد التنبه لهذا؛ فعن سليمان بن يسار: أَنَّ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ صَبِيغٌ، قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَجَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عُمَرُ رضي الله عنه وَقَدْ أَعَدَّ لَهُ عَرَاجِينَ النَّخْلِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا عَبْدُ اللهِ صَبِيغٌ، فَأَخَذَ عُمَرُ عُرْجُونًا مِنْ تِلْكَ الْعَرَاجِينِ، فَضَرَبَهُ وَقَالَ: أَنَا عَبْدُ اللهِ عُمَرُ، فَجَعَلَ لَهُ ضَرْبًا حَتَّى دَمِيَ رَأْسُهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، حَسْبُكَ، قَدْ ذَهَبَ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ فِي رَأْسِي[(٢)]. وحبسه في بيت، وكرر عليه العقوبة، ثم لم يكتفِ بذلك، فبعث به إلى أبي موسى الأشعري في الكوفة، وكتب إليه: أَلَّا يجالسه أحد، ولا يكلمه أحد. فكان هذا الرجل كلما همَّ أن يقعد إلى حلقة من حلقات المسجد، ناداهم أهل الحلقة الأخرى: «عزمةَ أمير المؤمنين»، فيردونه؛ كالبعير الأجرب، حتى رَقَّ له أبو موسى، وكتب إلى عمر أن يا أمير المؤمنين، خلِّ بينه وبين الناس فقد ذهب عنه ما يجد، فخلَّى بينه وبين الناس، ويقال أنه لما ظهرت الفتنة دخل فيها.

ومما يؤثر عن الإمام مالك رحمه الله، في ذم المراء والجدل:

- (العالم يخبر بالسُّنَّة ولا يخاصم؛ فإن قبلت منه وإلا سكت)[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٢٥٣)، وابن ماجه رقم (٤٨)، وأحمد رقم (٢٢١٦٤)، وحسنه الألباني، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (١٤١).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه رقم (١٤٦).

(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٢٥)

ـ (ليس الجدال من الدين في شيء)[١].

ـ (وكلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجدله! إذًا لا نزال في طلب الدين)[٢].

ـ (المراء في العلم يقسي القلب، ويورث الضغن)[٣].

ـ (إذا جاءك من يجادلك من أهل الأهواء في أمر الدين، فقل: أما أنا فعلى بينة من ربي، وأما أنت فشاكٌّ، فاذهب إلى من هو شاكٌّ مثلك، فخاصمه)[٤].

فينبغي على طلبة العلم التخفف من المسائل التي لا طائل من ورائها، ولا خير فيها، ومن ذلك ما يقع من تصنيف الناس، والقيل والقال، مما يعكر القلوب، ويوغر الصدور. وقد يستنزل بعضهم الآثار المروية عن السلف، الموجهة لأهل البدع المغلظة؛ من جهمية، وقدرية، وخوارج، ورافضة، ويُعملها في إخوانه من أهل السُّنَّة، الذين قد يخالفونه في مسألة أو مسألتين أو ثلاث، وربما كانوا أسعد منه بالدليل.

وإذا ابتلي طالب العلم بهذه الآفة في أول طلبه فقل: عليه السلام! فتجده يشتغل بهذه المتشابهات ويدع المحكمات من علوم الكتاب والسُّنَّة. وهذا في الحقيقة نوع من «الإجهاض المبكر» لطالب العلم. فلا تضيع عمرك يا طالب العلم القيل والقال، واحفظ سمعك وبصرك وعقلك ودينك. وظُن بالمسلمين خيرًا. فإن رأيت خطئًا، أو منكرًا فابذل النصيحة، واكتب إلى صاحبك، ونبهه برفق وشفقة.

وقد كان شيخنا محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يكره الردود، حتى إنه يأتيه بعض الطلبة، ويقولون: انظر ما قال فلان! رد عليه! فقال مرة لأحدهم:

---

(١) انظر: ترتيب المدارك (٢/ ٣٩)، والاعتصام (٢/ ٣٣٧).
(٢) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة للالكائي رقم (٢٥٩)، وذم الكلام (٨٧٠ ـ ٨٧١).
(٣) انظر: ذم الكلام (٨٨٢).
(٤) انظر: أصول السُّنَّة، لابن أبي زمنين رقم (٢٣١).

وهل عَلِمتموني من أهل الردود؟! وكان إذا علم على أحد خطئًا؛ سواء كان صحفيًّا كتب مقالة، أو مسؤولًا أصدر قرارًا، أو عالـمًا أفتى وجانب الصواب، أو سوى ذلك، يقوم بالاتصال به، ويحدثه بينه وبينه، ويُنهي الأمر، أو يكتب له خطابًا، ويبين له الحق بأدب جم، ويخاطبه بالألقاب التي تليق به، ويطلب منه أن يرجع عن قوله أو فعله، ويقول رَحِمَهُ اللهُ: إنه إذا فعل ذلك كان أحرى بحصول المقصود من أن ينتدب له آخر يرد عليه، فينقسم الناس إلى مؤيد ومعارض. وهذا دليل الإخلاص؛ لأن من الناس من يعجبه أن يقال: إنه رد على فلان وأفحمه. هذه ليست مفخرة، إذا كان مخلصًا يريد أن يشيع الحق بين المسلمين فليكن ذلك بأقرب الطرق وأيسر الأسباب. فهكذا ينبغي أن يكون طالب العلم؛ عَفَّ اللسان كريم المنطق مترفعًا عن سفاسف الأمور.

وينبغي لطالب العلم أن يقرأ كتاب «أخلاق العلماء»، لأبي بكر بن الآجري، فهو صغير الحجم كبير النفع، تجد فيه نَفَسَ العلماء الربانيين الصادقين، وبيان الفرق بين العالم الرباني، والعالم المفتون. فلا بد من ترك المِراء والجِدال.

قوله: (وتَرك ما أَحْدَثَهُ المُحْدِثُونَ): عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[(١)]، وقال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[(٢)].

والإحداث في الدين هو البدعة، وقد عرَّفها الإمام الشاطبي، فقال: (طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يُقصد بالسير عليها المبالغة في التعبد لله تعالى)[(٣)]. **وبيان ذلك**:

(طريقة في الدين): فما أحدثه الناس من أمور المعاش في مساكنهم

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٦٩٧)، ومسلم رقم (١٧١٨).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٦٩٧)، ومسلم رقم (١٧١٨).
(٣) الاعتصام (١/ ٥)، دار ابن عفان السعودية.

ومراكبهم وملابسهم، وغير ذلك، لا يدخل في حد البدعة؛ لأنه لا يتعلق بالأمور الدينية.

(مخترعة): أي: على غير مثال سابق، فخرج بذلك من أحيا سنةً مندثرة.

(تضاهي الشرعية): أي: تحاكي وتشابه الأمور المشروعة؛ كالذين يحدثون الأوراد، والصلوات، مما لا أصل له، وهي «البدعة الأصلية»، أو أضافوها إلى أصل صحيح في سببها، أو عددها، أو كيفيتها، أو زمانها، أو مكانها، وهي «البدعة الإضافية».

(يقصد بالسير عليها المبالغة في التعبد لله تعالى): أهل البدع يروجون بدعهم بدعوى المبالغة في عبادة الله ﷻ، وزيادة التقرب إليه، وهم في الحقيقة لا يزيدون من الله إلا بعدًا. وما أُقيمت بدعة، إلا وأميتت سُنَّة. فاقتصاد في سُنَّة، خير من اجتهاد في بدعة.

والبدع أنواع ومراتب؛ فمنها بدع مكفرة، ومنها مفسقة، ومنها اعتقادية، ومنها عملية، ومنها قولية، ومنها فعلية. وهي مذمومة مطلقًا.

رحم الله أبا محمد، ابن أبي زيد القيرواني، وأجزل مثوبته، على ما أودع في هذه المقدمة. ورحم أبا محفوظ، محرز بن خلف البكري، أن كان سببًا في كتابتها.

(**وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليمًا كثيرًا**).



فهرس المراجع

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **الإبانة الكبرى لابن بطة**، المؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري، المحقق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، عدد الأجزاء: ٩.

٣ ـ **الأجوبة المرضية فيما سئل السخاوي عنه من الأحاديث النبوية**، المؤلف: شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي، المحقق: محمد إسحاق محمد إبراهيم، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٤ ـ **إحياء علوم الدين**، المؤلف: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٥ ـ **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، المؤلف: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري، المحقق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، الناشر: دار الكتاب، الدار البيضاء، عدد الأجزاء: ٣.

٦ ـ **الأسماء والصفات**، المؤلف: البيهقي أحمد بن الحسين أبو بكر، المحقق: عبد الله بن محمد الحاشدي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: ٢.

٧ ـ **الاعتصام**، المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، المحقق: سليم بن عيد الهلالي، الناشر: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، عدد الأجزاء: ٢.

٨ ـ **اعتقاد أئمة الحديث**، المؤلف: أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس بن مرداس الإسماعيلي الجرجاني، المحقق: محمد بن عبد الرحمٰن الخميس، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٩ ـ **البداية والنهاية**، المؤلف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، الناشر: مكتبة المعارف، بيروت، عدد الأجزاء: ١٤.

١٠ ـ **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، عدد الأجزاء: ١٠.

١١ ـ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المحقق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، لبنان ـ بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، الطبعة الأولى.

١٢ ـ **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**، المؤلف: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، جزء ١: ابن تاويت الطنجي، ١٩٦٥م، جزء ٢، ٣، ٤: عبد القادر الصحراوي، ١٩٦٦ ـ ١٩٧٠م، جزء ٥: محمد بن شريفة، جزء ٦، ٧، ٨: سعيد أحمد أعراب ١٩٨١ ـ ١٩٨٣م، الناشر: مطبعة فضالة، المحمدية ـ المغرب، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: ٨.

١٣ ـ **تفسير القرآن العظيم**، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٨.

١٤ ـ **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، المحقق: مصطفى بن أحمد العلوي، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب، ١٣٨٧هـ، ومحمد عبد الكبير البكري، عدد الأجزاء: ٢٢.

١٥ ـ **التوسل؛ أنواعه وأحكامه**، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة.

١٦ ـ **جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)**، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٧ ـ **جامع العلوم والحكم**، المؤلف: أبو الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٨ ـ **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، المحقق: شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٩ ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، المحقق: علي حسن ناصر، وعبد العزيز إبراهيم العسكر، وحمدان محمد، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، عدد الأجزاء: ٦.

٢٠ ـ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١ ـ **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، المؤلف: عبد الرحمٰن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، عدد الأجزاء: ٢.

٢٢ ـ **درء تعارض العقل والنقل**، المؤلف: تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمٰن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٣ ـ **الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء**، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٢٤ ـ **السلسلة الضعيفة**، المؤلف: الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، لصاحبها سعد بن عبد الرحمٰن الراشد، الرياض، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: ١٣.

٢٥ ـ **السلسلة الصحيحة**، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، عدد الأجزاء: ٧.

٢٦ ـ **سنن ابن ماجه**، المؤلف: محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر، بيروت، عدد الأجزاء: ٢، مع الكتاب: تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

٢٧ ـ **سنن أبي داود**، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، المحقق: شعَيب الأرنؤوط، ومحَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م، عدد الأجزاء: ٧.

٢٨ ـ **سنن الترمذي**، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م، عدد الأجزاء: ٥.

٢٩ ـ **سنن الدارمي**، المؤلف: عبد الله بن عبد الرحمٰن أبو محمد الدارمي، المحقق: فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، عدد الأجزاء: ٢.

٣٠ ـ **السنن الصغير**، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي ـ باكستان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م، عدد الأجزاء: ٤.

٣١ ـ **السنن الكبرى**، المؤلف: أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: (١٠ و٢ فهارس).

٣٢ ـ **السنن الكبرى**، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ١٠.

٣٣ ـ **سير أعلام النبلاء**، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذَّهَبي، المحقق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، عدد الأجزاء: ٢٣.

٣٤ ـ **شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة**، المؤلف: هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، المحقق: د. أحمد سعد حمدان، عدد الأجزاء: ٤، الناشر: دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢هـ.

٣٥ ـ **شرح السنة**، المؤلف: الحسين بن مسعود البغوي، المحقق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق ـ بيروت، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، الطبعة الثانية، عدد الأجزاء: ١٥.

٣٦ ـ **شعب الإيمان**، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي ـ الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ١٤.
٣٧ ـ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ١٨.
٣٨ ـ **صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر)**، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٣٩ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، عدد الأجزاء: ٢.
٤٠ ـ **صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر)**، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، عدد الأجزاء: ٥.
٤١ ـ **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، المحقق: علي بن محمد الدخيل الله، عدد الأجزاء: ٤.
٤٢ ـ **ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
٤٣ ـ **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، المحقق: عمر بن محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم ـ الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
٤٤ ـ **العظمة**، المؤلف: عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبو محمد، المحقق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، عدد الأجزاء: ٥.

٤٥ ـ **عقيدة السلف ـ مقدمة ابن أبي زيد القيرواني لكتابه الرسالة**، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن (أبي زيد) عبد الرحمٰن النفزي، القيرواني، المالكي، نظمها: أحمد بن علي بن حسين الوهيبي التميمي المالكي الأحسائي، المحقق: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار العاصمة.

٤٦ ـ **العلو للعلي الغفار**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٤٧ ـ **فتح المغيث شرح ألفية الحديث**، المؤلف: شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، عدد الأجزاء: ٣.

٤٨ ـ **الكامل في ضعفاء الرجال**، المؤلف: عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد أبو أحمد الجرجاني، المحقق: يحيى مختار غزاوي، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م، عدد الأجزاء: ٧.

٤٩ ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، المؤلف: علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي، المحقق: بكري حياني، وصفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٥٠ ـ **لسان العرب**، المؤلف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: ١٥.

٥١ ـ **مجموع الفتاوى**، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، المحقق: أنور الباز، وعامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، عدد الأجزاء: ٣٧.

٥٢ ـ **مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي**، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، حققه واختصره: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٥٣ ـ **مختصر سيرة الرسول ﷺ**، المؤلف: الإمام محمد بن عبد الوهاب، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، تاريخ النشر: ١٤١٨هـ.

٥٤ ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٥٥ ـ **المستدرك على الصحيحين**، المؤلف: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ٤، مع الكتاب: تعليقات الذهبي في التلخيص.

٥٦ ـ **مسند أبي يعلى**، المؤلف: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٥٧ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المحقق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٥٠.

٥٨ ـ **مسند الربيع بن حبيب**، المؤلف: الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري، المحقق: محمد إدريس، وعاشور بن يوسف، الناشر: دار الحكمة ـ مكتبة الاستقامة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٥٩ ـ **مشكاة المصابيح**، المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، عدد الأجزاء: ٣.

٦٠ ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، عدد الأجزاء: ٢.

٦١ ـ **معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي**، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، عدد الأجزاء: ٥.

٦٢ ـ **المعجم الأوسط**، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبو القاسم الطبراني، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين، القاهرة، عدد الأجزاء: ١٠.

٦٣ - **الرسالة القيروانية**، المؤلف: عبد الله بن أبي زيد القيرواني أبو محمد، المحقق: أحمد مصطفى قاسم الطهطاوي، الناشر: دار الفضيلة.

٦٤ - **التقريرات الكلامية لشراح المقدمة العقدية لرسالة ابن أبي زيد القيرواني: دراسة نقدية على ضوء عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة**، الناشر: مكتبة أهل الأثر (الكويت)، وشركة وعي الدولية (القاهرة)، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.

٦٥ - **القاموس المحيط**، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، المحقق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م. عدد الأجزاء: ١.

٦٦ - **معجم مقاييس اللغة**، المؤلف: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. عدد الأجزاء: ٦.

٦٧ - **تفسير القرآن العظيم**، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٨.

٦٨ - **زاد المسير في علم التفسير**، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦٩ - **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، عدد الأجزاء: ١٣.

٧٠ - **السُّنَّة**: المؤلف: أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي (المتوفى: ٢٩٠هـ)، المحقق: د. محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، عدد الأجزاء: ٢.

٧١ - **الشريعة**: المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٥.

٧٢ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**، المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط، وعبد الله بن المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ٢.

٧٣ ـ **منهاج السُّنَّة النبوية**، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، المحقق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، عدد الأجزاء: ٨.

٧٤ ـ **أصول السُّنَّة**، ومعه رياض الجنة بتخريج أصول السُّنَّة، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ)، تحقيق وتخريج وتعليق: عبد الله بن محمد عبد الرحيم بن حسين البخاري، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، عدد الأجزاء: ١.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة